

سَيِّدَاتِ

مِعْرَاةُ الْإِسْلَامِ وَالرَّأْسَمَالِيَّةِ

دار الشروق

بمعركة الاستسلام والاسماوية

الطبعة العاشرة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

الطبعة الحادية عشرة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثانية عشرة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الثالثة عشرة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جولاد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣

فاكس : ٣٩٣٤٨١١ (٠٧) تلکس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بروكلين : ناشسروك - تلکس : SHOROK 20175 LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا
مُتْرَفِيهَا فَتَسْتَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ »
« فَدَمَّرْنَا هَاهَا نَدْمِيرًا »

(قرآن کریم)

صِحة التذير

هذا الوضع الاجتماعي السيء الذي تعانيه الجماهير في مصر .. غير قابل للبقاء والاستمرار .. هذه حقيقة يجب أن تكون معروفة من الجميع ، كي يمكن السير بعد ذلك على هداها في الطريق الصحيح .

نعم ! غير قابل للبقاء والاستمرار ، ذلك أنه مخالف لطبائع الأشياء ، لا يحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء ، يعلي له في الاجل ، ويهيء له فرصة البقاء .

انه مخالف لروح الحضارة الانسانية بكل معنى من معانيها ، مخالف لروح الدين بكل تاويل من تاويلاته ، مخالف لروح العصر بكل مقتضى من مقتضياته . ذلك فوق مخالفته لأبسط المبادئ الاقتصادية السليمة . ومن ثم فهو معطل للنمو الاقتصادي ذاته ، بله النمو الاجتماعي والانساني .

وكل وضع اجتماعي يكون من نتائجه شل قوى الامة عن العمل والانتاج ، فتعويقها بهذا عن النمو والتقدم .. هو وضع شاذ ، لا يفقد فقط حقه في البقاء ، بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف اذا اجتمع الى هذه الافة ، انه يهدر الكرامة الانسانية ، ويفسد الخلق والضمير ، ويقضي على كل معاني العدالة ، ويقتل الثقة الضرورية في المجتمع والدولة ، وينشر القلق ، ويذهب بالاطمئنان ؟

ان الذين يتشبثون اليوم بهذا الوضع الشاذ ، ويحاولون أن يقيموا له الاسناد ، سواء كانوا من المستغلين ، الذين يعز عليهم

أن يساهموا في التكاليف والإمباء الضرورية لإقامة المجتمع الصالح وصيانتة ، أو من الطفاسة الذين يصب على نفوسهم أن تجري العدالة مجراها ، فتحرمهم أسباب السلطان الزائف الذي لا يقوم على أساس ، أو من المستمتمين الذين مردوا على المتاع الفاجر ، فهم لا يطبقون القصد فيه والاعتدال ، أو من رجال الدين المحترفين ، الذين باعوا أنفسهم لا لله ولا للوطن ، ولكن للشيطان ، ولأن يتقدم فيها ثمنا بخسا دراهم معدودات . . . ان هؤلاء جميعا إنما يحاولون ما لا يقبل لهم به ، لأنهم يحاولون ضد طبائع الأشياء أنهم إنما يلقون بأيديهم إلى التهلكة لأنهم يضيعون كل فرص السلامة الساتحة المتاحة . ويا ليتهم يذهبون وحدهم حين يذهبون ، ولكنهم سيذهبون ومعهم هذه الأوطان المنكوبة ، ما لم تأخذ هذه الأوطان على أيديهم وفي الوقت متسع ، قبل أن يحق عليها النذير الصادق الحاسم : « وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فنحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

ان الحقائق الواقعة لا تعالج ، كما نعالجها نحن اليوم ، بالخطب الوعظية ، أو الفتاوى المحتالة ، كذلك لا تعالج بتكليم الأفواه ، وتحطيم الأقدام . . إنما تعالج بحقائق واقعة تقابلها وتغيرها . والمعدات الجامعة لا تفهم المنطق - حتى ولو كان منطقا صحيحا لا احتيال فيه ولا التواء - وعلينا أن ندرك هذا قبل قوات الاوان . ولقد أوشك والله ان يفوت الاوان !

فليقل من شاء كيف شاء : من الطفافة المستغلين ، ومن رجال الدين المحترفين ، ومن الكتئاب المرتزقين ، والصحفيين الماجورين : ان الدعاة إلى اصلاح هذا الواقع الاجتماعي السيئ ، شيوعيون ، أو خارجيون عن القانون ، أو خطرون على الأمن والنظام ، أو دعاة هدم وفوضى ، وليحاربوهم بكل الوسائل الجهنمية ، التي يملكها الطفافة في كل زمان ومكان ، ليزجوا بهم في المعتقلات والسجون ، وليعطلوا لهم الصحف والأقلام ، وليحاربوهم في أرواقهم وأقواتهم ، وليسدلوا الستار على حياتهم وذكرهم .

ان صوتا سيرتفع بعد ذلك كله، ولن يمكن اسكاته ابدا : صوت
المعدات الخاوية ، التي تملأ جنبات هذا الوادي . صوت الملايين
التي تبلل العرق والدماء ، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة ، ولا
خرقة الكساء متواضعة . صوت الجموع التي لم تقرأ في حياتها
كلمة واحدة عن الشيوعية او غير الشيوعية ، ولكنها جموع من
الاحياء ، تطالبهم معداتهم بلقمة الخبز ، وتطالبهم جلودهم بخرقة
الكساء .

سيبقى صوت واحد لا يخفت — ولو خفت جميع الاصوات —
صوت الواقع الذي ينطق بلسان الملايين من تلك القطع الادمية
المحطمة الزرية ، التي مسختها تلك الاوضاع الاجتماعية الظالمة ،
فحرمتها حتى حاسة الاحساس بالظلم ، وحتى شعور الانسان
بالحرمان .

نعم ! وصوت مئات الالوف من الحطام الادمي المتناثر في
الطرق ، اللاصق بالجدران ، الباحث عن الفتحات في صناديق
القمامة مع القطط الضالة والكلاب . ذلك الحطام المشوه المخلقة ،
المقرح الجلد ، المسعول الامسين ، الشارد المتلصص ، او الدليل
المتسول .. هنا وهناك في كل مكان .

ذلك بينما الترف الفاجر الدامر يعربد في المواخير والقصور ،
والذهب المتجمد من دماء الملايين ، يبعثر على الموائد الخضرة وفي
حجور الغواني ، والارباح الفاحشة تعجز اربابها عن العد والاحصاء
بله الإنفاق والاستهلاك !

من ذا الذي يستطيع ان يقول : ان وضعنا اجتماعيا تلك ثماره
المتعفنة الخبيثة يمكن ان يدوم ، مهما اقيمت له الاسناد المنتحطة
من فتاوى المحترفين ، او مقالات المرتزقة الماجورين ، او عصف
الطفاة والمستغلين !

اقه عبث . عبث ضائع . عبث ضد طبائع الاشياء .

اننى اتهم

.. اتهم هذه الاوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الامة عن العمل والانتاج ، وتشيع فيها البطالة والتعطيل ، وتقعدنها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية ، وتؤدي بها الى الضعف عن مواجهة الاخطار الداخلية والاطار الخارجية ، التي تتزايد وتبرز على مر الايام .

ان ارضنا تملك ان تنتج اضعاف ما تنتج من غلات . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لان هذه الارض لا تزال موزعة كما كانت موزعة في اعظم عهود الاقطاع ، فهي محتكرة في ايدي قليلة لا تستغلها استفلا لا كاملا ، ولا تدعها للقادرين على استفلالها ممن لا يملكون شيئا
دع هذه الارض تخرج من هذا الاحتكار ، وتتناولها الايدي المتعطلة التي لا تجد ما تعمل . . . حينئذ تتبدل الحال غير الحال .

وان الارض الصالحة للزراعة يمكن ان تتضاعف . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لان مشروعات الري والصرف الكبرى معطلة لا تنفذ ؟ لماذا ؟ لانها تحتاج الى المال ، والمال في ايدي الراسماليين ، والدولة تشفق ان تحمل رؤوس الاموال بصيبتها الواجب من الاعباء . لماذا ؟ لان الدولة لا تمثل الجماهير المحتاجة ، انما تمثل رؤوس الاموال
دع مقاليد الحكم للشعب حقا . حينئذ سيجد الشعب في خزائنه من حصيلة الضريبة العادلة ، ما يصلح به الاراضي البور ، في فترة معقولة من الزمان .

وان هذه الارض لتحتوي كنوزا من الخامات والقوى المعطلة التي لا تستغل . لماذا ؟ لان الدولة فقيرة وعاجزة وغير جادة ومشغولة . . . فقيرة لا تجد المال ، لان ميزانيتها تعتمد على دخول

الجمارك التي يؤديها الفقراء قبل الاغنياء ، ولا تعتمد على ضرائب الدخل المباشرة التي يؤديها الاغنياء قبل الفقراء ! وعاجزة لان اداتها الادارية فاسدة . افسدتها الاستثناءات والمحسوبيات ، وسوء النظام ، وبلادة « الروتين » ، كما افسدتها الرشوة ، وفساد الدمة ، وتمغن الضمير . وغير جادة ، لانها لا تحصى حافزا يدفعها الى زيادة الثروة القومية العامة ، ما دام الاثرياء الذين تمثلهم يحسون التخمّة ، ويعجزون عن تصريف ما في ايديهم من ثروات . ومشغولة . مشغولة بذلك الصراع الحزبي في حلبة الاقزام ، التي اقامها الاستعمار منذ ربع قرن باسم الدستور ! ووقف يتفرج ويتسلى ، كما كان الاشراف في القرون الوسطى يتسلون بصراع العبيد والاقزام . ثم هي مشغولة بحماية تلك الاوضاع الاجتماعية الشاذة المناقضة لطبيعة الاشياء ، والتي تحتاج الى جهد ضخم من الاداة الحكومية العاجزة الفاسدة السلام .

وان في هذه الارض من الثروات البشرية والقوى الانسانية ما لا يقل عما فيها من الخدمات والقوى . ولكن احدا لا يستغلها ولا يلتفت اليها . لماذا ؟ لان المصلحة العاجلة للسادة الراسماليين الذين تمثلهم الدولة ، لا تقتضي استغلال هذه القوى ولا استنقاذها من التبطل والضياع . فهي تدعها للجهل والمرض والفقر تاكلها اكلًا ، ثم تدعها للتبطل بحيلها مخلوقات تافهة : اما مشردة في الطرقات ، واما جالسة على المقاهي والحانات ، واما عاملة كمتعطلة لا تنتج الا التافه اليسير مما تملك ان تنتج ، لان النظام الذي تعمل في ظله نظام فاسد ، ولان الاجور التي تتناولها لا تحفز الى الاخلاص ، ولان المستقبل الذي ينتظرها ظلام في ظلام . . والدولة لا تحاول ان تعمل شيئا جديا لاستنقاذ هذه الثروات المبددة الضائعة في سفه واسراف .

ذلك ان استنقاذ هذه الثروة القومية مسن القوى البشرية يكلف رؤوس الاموال بعض التكاليف . ودون هذا وتقف الدولة متحرجة واجمة خاشعة !

وهكذا يدور دولاب العمل في الدولة وفي الشعب ، لا ليسد حاجة سكانها جميعا ، بل ليسد حاجة حفنة قليلة هي القادرة وحدها على الانتاج وعلى الاستهلاك . ولا تعمل الدولة ولا الامة لرعاية المصالح الضخمة للعشرين مليونا من السكان ، بل لرعاية المصالح المحدودة لفئة منها معدودة .

ثم يتزايد السكان وتتناقص الغلة ، لا لمجز في طبيعة الامة من العمل ، ولا لنقص في كفاياتها واستعداداتها الفطرية ، ولكن تبعا لهذا الاختلال في توزيع الثروة القومية ، وفي توزيع المغانم والمغارم ، ومن ثم تتخلف والدنيا تركض ، ونضعف وخصومنا على الابواب تتزايد قدرتهم على الاعتداء ، وتهبط كرامتنا الدولية يوما بعد يوم ، ونحن نتحلق ونتصايح : يحيا ويسقط ، حول الصراع الحزبي التافه في حلبة الاقزام !



اني انهم .. انهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تهدر الكرامة الانسانية ، وتقضي على كل حقوق الانسان .

ومن ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الملايين من الفلاحين الجياع العراة الحفاة ، الذين تأكل الديدان احشاءهم ، وينهش اللدباب ماقيهم ، وتمتص الحشرات دماءهم .. ناس . يتمتعون بكرامة الانسان وحقوق الانسان ؟

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الصبية الذين يجمعون من القرى والكفور للعمل في « التراحييل » لتنقيسة المزارع في الدوائر والتفتيش من الافات ، وجسومهم تنغل بالافات ، وينقلون عشرات الاميال ومثاتها بعيدا عن اهلهم - حيث يعودون او لا يعودون - لا متطوعين ولا مختارين ، ولكن قسرا وغصبا ، في مقابل القروش والملاليم التي يؤكل نصفها قبل ان تصل الى ايديهم الهزيلة النحيلة .

من ذا الذي يقول بأن هؤلاء ناس لهم كرامة الانسان
وحقوق الانسان ؟!

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن الملايين من « الانفار » في
دوائر الاقطاع ناس ، والسيد المالك يملك أن يحيي ويميت ، وأن
يمنع ويمنح ، وأن يرزق ويرزأ ، والعبيد لا يملكون شيئاً ، حتى
ولا حق البقاء في الدائرة ، ولا التعويض الضئيل عند الطرد من
الرحمة . فاذا غضب السيد - بل عامله - فقد طرد « النفر » مع
زوجه وأولاده ، وقد سلبت منه جاموسته ، وقد عاد كوخه إلى
السيد المالك الذي أنعم به عليه ، وخرج هو شريداً طريداً من
رحمة الأرض جميعاً !

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن مئات الألوف من المعجرة
المتسولين ، الباحثين من الفتات في صناديق القمامة ، العراة
الجسد ، الحفاة القدم ، المعفري الوجوه ، الزائفي النظرات ..
ناس لهم كرامة الانسان وحقوق الانسان ؟ وهم لا يجدون ما تجده
كلاب السادة في بيوت السراة !

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الألوف من الخدم في
البيوت ، و « الخلعة السائرة » في الدواوين ، الذين يحرمهم
القانون حتى حق تكوين النقابات ، لأن السادة يأبون عليهم هذا
الحق ، كي لا يتجرا العبيد على الاسياد ، وكي لا تكون لهم حقوق
... ولو نظرية - يرفعون بها جباههم في وجوه الاسياد ...

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء ناس ، لهم حقوق
الانسان وكرامة الانسان ؟!

ودمك بعد هذا من تلك الخرافة التي نتحدث عن « الامة
مصدر السلطات » وعن حق الانتخاب وحرية الاختيار .. انها
خرافة لا تستحق المناقشة ، فهذه الامة مصدر السلطات هي هذه
الملايين الجائعة الهزيلة ، الجاهلة المستغفلة . هذه الملايين المشغولة
نهارها وليلاً بالبحث عن اللقمة . الملايين التي لا تملك أن تفيق

لحظة لتفكر في ذلك الترف الذي يسمونه حق الانتخاب وحرية الاختيار . الملايين التي يشير لها السادة فتنخب ، ويشير لها السادة فتمتنع ، لان هؤلاء السادة هم خزنة ارزاقها واقواتها ، وملاك الاقطاع الذي يؤوي هؤلاء الجياع !

انها خرافة ان تتحدث في عهود الاقطاع عن الدساتير والبرلمانات . ونحن نعيش في عهود الاقطاع بكل مقوماتها ، لا ينقص منها شيء الا تبعات السيد تجاه رقيق الارض ، فقد سقطت عنه هذه التبعات في عصر الدستور ! اجل فلقد كان السيد فيما مضى مسؤولا عن رقيقه ، يزوج بناتهم ويعنجهن ، ويعالجهن اذا مرضوا ، ويؤدي عنهم نفقات الجناز والاعياد . . فاسقط عهد الدستور كل هذه التكاليف من كاهله ، وابقى له الرقيق ، ياكل من ابدانهم ما يشاء كيف شاء !

ان الحديث عن الدساتير والبرلمانات يصلح مادة فكاهة ، يتسلى بها الفارغون . ولكنه لا يصلح حديث امة تريد الجسد ، وتنظر الى الواقع بعين الاعتبار !

اني اتهم . . اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تفسد الخلق والضمير ، وتشيع الفساد في المجتمع والدولة ، وتؤدي الى الانحلال الفردي والقومي .

ان تضخم الثراء في جانب ، وبروز الحرمان في جانب ، من شأنه ان يخلق طبقة من الاثرياء الفارغين المتبطلين ، الذين يجدون لديهم وفرة من المال ، ووفرة من الوقت ، ووفرة مسن الطاقة الجسدية التي لا بد لها من متصرف .

والطاقة التي لا تصرف في العمل ، والتي لا تشغلها فكرة اعلى من الذات ، لا بد ان تجد لها طريقا آخر : طريق المتاع الجسدي

الغليظ ، والرفاهية المترفة الناعمة ، والموائد الخضر والسباق ،
والسكر والعريضة والاستهتار ...

وماذا يصنع أولئك الفتيان المرد ، وأولئك الشيوخ المترهلون ،
الذين تجبى اليهم ثمرات الكد والعرق والدماء ، من جهود الآلاف
الجياح الحفاة العراة .. ماذا يصنع أولئك وهؤلاء بتلك الآلاف
والملايين التي تصل اليهم وهم قاعدون ؟ ماذا يصنعون ولم يظهر
العمل قلوبهم وأيديهم ، ولم يشغل العمل أفكارهم ومشاعرهم ؟
ماذا يصنعون إلا أن يفكروا في لذائد الحس ، وشهوات الجسد ،
والترف الناعم الرخيص ؟

وهم يملكون قوة الأغراء .. المال .. وعلى الضفة الأخرى
أولئك المحرومون التاعسون ، ضعفاء أمام ذلك الأغراء ، طلاب حياة
وطلاب متاع كذلك ، لا يجدون اليهما سبيلا من وجه شريف ...
فالشرف آخر حرفة في مصر تدور على أصحابها الكفاف !

عندئذ ينقسم المحرومون والمحرومات فريقين : فريق
السماسرة وفريق الضحايا . فريق القوادين وفريق الرقيق ... ولا
عبرة بالفريق الثالث : فريق الشرفاء الذي يأبى أن يخضع للأغراء
العنيف . انه فريق الذين لا يريدون الحياة ولا يريدون المتاع ! او
فريق الأبطال والقديسين . وما كل الناس ولا كثرتهم أبطال
ولا قديسون !

ولا بد من حاشية وأذيال ، لأولئك الفتيان المرد ، وأولئك
الشيوخ المترهلين . لا بد من حاشية تعلق كبرياءهم ، وتؤمن على
سخافاتهم وحمقاتهم . وهم واجدون هذه الحاشية في ذلك
الحطام الأدمي التافه ، الذي أحالته الأوضاع الاجتماعية الفاسدة
ديدانا طفيلية وامعات !

وهكذا تكون حلقة مفرقة ، من الشباب الفارغ والشيوخ
الأسنة ، ومن الرق الأبيض والتخاسة القدرة ، ومن الملق الحقر
وفناء الشخصية والانحلال .

وندع هذه الحلقة الاسنة ، لتقع العين على حلقة أخرى
نشيطه متحركة عاملة . ولكن للشيطان وفي حقل الشيطان . حقل
الرشوة والارتشاء . حقل السرقة والاختلاس وفساد الضمير .

انه العوز في جانب والاغراء في جانب . انه الموظف ذو العيال
الذي يلهب الغلاء ظهره بسياطه الكاوية ، ويمتص عصارة قلبه
ودعه ، ليسلمها الى السادة الممولين ، الذين تحميمهم الدولة
بتشريعاتها ، وتعمل لحسابهم وحدهم لا لحساب الجماهير . انه
ذلك المخلوق الضميف وامامه اغراء المال الحرام . المال الذي يريد
ان يتضاعف بالغش والسرقة والتخريب والاحتكار .

وقد لا يقف الفقر هكذا امام الثراء . انما يقف المال امام
المال . تقف المصلحة المشتركة بين الغنى الفاحش والغنى الفاحش .
تقف المؤامرة على حقوق الجماهير ومصالح الجماهير . الجماهير
الضعيفة التي لا تملك شيئا تلدود به من نفسها في المعركة ، حتى
ولا قوة اليقظة والانتباه !

وهذه قضايا الدخيرة الفاسدة في الجيش ، وتخريب التموين
الى اسرائيل ، والاختلاسات في الاموال العامة . . . هذه هي تقشعر
لقدارتها وبشاعتها النفوس . ولكنها في صميمها ليست منفصلة
عن الاوضاع الاجتماعية القائمة ، فهي تمرتها الطبيعية التي لا
تشر سواها ، وما يمكن ان تختل موازين العدالة الاجتماعية هذا
الاختلال ، ثم تبقى للمجتمع قواه الخلقية ومبادئه ومثله . انما
هي الحماة الاسنة يصب فيها الوحل والقلي ، وتنمو على حوافها
الحشرات ، وتنسل في جوفها الديدان ، ثم تتسع وتتسع حتى
تحيل المجتمع كله بركة من الوحل المنتن العفن ، نفوس فيها
الضمائر والاخلاق ، وتفرق فيها القوميات والاطنان .

وهنا ينبعث السادة الاجلاء من هيئة كبار العلماء ، مسن
سبائهم الطويل العميق ، ينمون الاخلاق الضائعة والفواحش
الشائعة ، ولا يدعون ثبورا واحدا بل يدعون ثبورا كثيرا ! فلننصرف

الى السادة الاجلاء لحظة نسمع منهم الوعد الشريف ، ترويحاً
لنفس من ذلك الجهد الكريه الذي نعاينه ا

هذه بعض عريضتهم الى رئيس الحكومة في يوم من الايام :

« وان الناظر في حال امتنا العريضة ، وما آل اليه امر الدين
والخلق فيها ، ليهوله ما يرى ، وبأخلده كثير من الحزن على حاضرها
الذي صارت اليه ، وبخالجه كثير من الاشفاق على مستقبلها
الذي هي مقبلة عليه . فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيها ،
وجنحوا الى ما يخالف تقاليد الاسلام ، ودخل على كثير منهم ما
لم يكن يعهد من اخلاق الاباحية والتحلل ، جريسا وراء المدنية
الزائفة ، واغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الفساد والاخرء
في البلاد ، ولا سيما امام ناشئتها وفتياتها ، الرجولين للنهوض بها ،
والاخذ بيدها في حاضرها ومستقبلها ، فمن حفلات ماجنة خليعة ،
يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة ، تشرب
فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم ، الى
اندية يباح فيها القمار ، ويسكب على موائد الذهب ، وتبخر فيها
الاموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات ، الى ملاعب للسباق
والمراهنات تنطوي على الرأى من الفساد واضاعة المال ، الى مسابقات
للجمال انما هي معارض للفسق والالتم ، يرتكب فيها ما يندى له
جبن الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات اكبرها
واخطرها ، الى شواطئ في السيف يخلق فيها العذار ، ويعطى فيها
الاشرار ، الى اخبار ذلك تذكر ونشر ، وتوصف وتصور ، وتستثار
بها كرامن الشهوات والفرائر ، في غير تودع ولا حياء ، الى كثير من
الوان المنكرات وفنون الموبقات ... »

وي اي ! ارهذا هكذا ايها العلماء الاجلاء ! يا سبحان
الله ! ولا حول ولا قوة الا بالله ! حقا انه لامر جلل يوجب النقمة
ويستوجب اللعنة ...

ولكن ! وقد قدر لشفاهكم الشريفة ان تنفج من كلام في

المجتمع ، أفما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية ، وعن رأي الاسلام في الحكم ، ورأيه في المال ، ورأيه في الفوارق الاجتماعية التي لا تطاق ؟

وما الذي كنتم تنتظرونه ايها السادة الاجلاء من اوضاعنا الاجتماعية القائمة الا هذا الفساد ، التي تناولت خطبتكم الشريفة ظواهره ، وتجنبت خوافيه ؟ اوضاعنا الاجتماعية التي تجد منكم السند والنصر ، والتي يصيبكم البكم فلا تثيرون اليها عارضة من قريب او من بعيد ، لان السكوت عنها من ذهب : ذهب ابرير !

اني اتهم .. اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تحيل تكافؤ الفرص خرافة ، والعدالة بين الجهد والجزاء اسطورة . وبذلك تشيع القلق والاضطراب في نفوس الافراد والجماعات .

انه يكفي في مصر ان يحسن الطفل اختيار ابويه ، كيما تتاح له الفرص جميعا ، ويتخطى عقبات الطريق وثبا ! فلئن فاته ان يحسن اختيار ابويه ، فلا اقل من ان يختار له زوجة قد احسنت اختيار ابويها ، فولدت في بيت وزير او كبير ، كسي تحمله على جناحيها وتطير ! فالا تكن قد احسنت اختيار ابويها فلا اقل من ان تكون قد احسنت اختيار تقاطيعها ولامحها . وهذه تعويذة تفك العقد ، ويدخل بها على الحكام ويخرج . كما كانت كتب السحر تصف بعض التعاويذ في قديم الزمان وسالف العصر والاوان !

والدعابة التي اطلقها الشاعر الملمم « محمود ابو الوفا » في :
« انفاس محترقة » :

اخي . قل لي ولا تخجل بماذا قد ترقيتنا ؟
وما انت بلدي جناه وعمرك ما تزوجتنا ؟

لم تكن دعابة عابرة ، انما هي ايماضة الحقيقة في ضمير هذا

الواقع الاجتماعي المريض ، انطلقت على لسان شاعر صادق
الحس موهوب .

ان تكافؤ الفرص في مثل هذه الاوضاع خرافة لا تقل عن
خرافة المساواة امام القانون ! والا فاي تكافؤ بين الكتلة من اللحم
يدفع بها رحم في الكوخ ، فتلقاها الارض ، او حجر اقذر من
الارض ، يسلمها الى الميكروب والمرض ، ثم يكلها الى الجوع
والشظف ، حتى اذا غلبت ذلك كله ، دفع بها الى الحرمان
والاهمال . وبين اخت لها وليدة على يدي طبيب ، وفي حضن
ممرضة ، موكولة الى العناية والرماية ، فالى المناقاة والتدليل ،
فالى روضة الاطفال فالجامعة ، فالى كرسي الديوان او مسط
الشراء في الشركات والدوائر والتفانيش ؟ !

اي تكافؤ بين ذلك الذي احسن اختيار ابويه وخاب في
الدراسة ، وذلك الذي لم يوهب حسن الاختيار ولو كان من أوائل
المتخرجين ؟

اي تكافؤ في عالم الوظيفة او في العالم الذي يسمونه «حرا»
وذلك المحظوظ المرموق يخطو والاسرة والجاه يفتحان له مغاليق
الحياة . وهذا التكد الشاسع يتلقاه الصدمات والعقبات في كل
شبر من طريقه البطيء الطويل ؟ !

واذا كان تكافؤ الفرص خرافة ، فالعدالة بين الجهد والجزاء
اسطورة ! والا فمن ذا الذي يقول : ان هذه الملايين الجائعة انما
تجوع لانها ملايين من الكسالى ، الذين لا يريدون العمل والتعب ؟
يقال هذا عن فرد ، او عشرة ، او عن مئة ، او عن الف ، او عن
عشرة آلاف . . اما ان يقال عن الملايين ، فدون هذا ويمسح
الحديث ، وتسخف العبارة ، وتعجز المرائر عن الاحتمال .

ان الذين يعملون في هذا البلد هم الذين يجوعون . اعني الذين
يعملون اعمالا شريفة ، لا تدخل في قائمة السرقة والاختلاس ،
والفسح والتدليس ، والارتشاء واستغلال النفوذ ، وتجارة الرقيق

الابيض ، والخيانة الوطنية ... الى آخر ما يملك به الرجل او المرأة في مصر ان يصبح بين يوم وليلة من الوجهاء والاثرياء !

نحن لا ننكر التفاوت في الاستعدادات الفردية والمقدرات الذاتية . ولكن أي تفاوت يمكن ان يبرر الفوارق بين ملايين عبود ، وفرفلي ، وامين يحيى ، والبندراوي ... وامثالهم . وبين الملايين التي ينالها عمالهم وعبيدهم وفلاحوهم ؟

وأي تفاوت يمكن ان يبرر الفوارق بين مرتب الوزير ووكيل الوزارة والمدير العام . ومرتبات الكتبة والسعاة والفراشين في الدواوين ، وهي تبلغ خمسين ضعفا في بعض الاحايين ؟

ان اية مخالطة عن تفاوت المقدرات الفردية لتقف حسيمة خجل أمام الواقع الصارخ ، الذي يفجر المدافعون عن تبريره وتفسيره ، عجزه هو ذاته عن الاستمرار والبقاء ، بحكم مناقضته لطبائع الاشياء .

ان مجتمعا هذه سماته ليشيع القلق في نفوس افراده وجماعاته . القلق الناشئ من ان الجهد لا يلقى جزاءه ، والجهد لا يشاب عليه ، والوسائل الملتوية تبلغ بصاحبها ما لا تبلغ الوسائل المستقيمة ، والولادة في بيت وزير او كبير تجدي ما لا يجدي الدكاء والوهبة والخلق والعمل جميعا !

ولقد مضى على مصر اكثر من ربع قرن منذ تسلمت مقاليدها ، وتوالى على حكمها الوزارات والاحزاب . وما من عهد من هذه العهود خلا من الاستثناء البغيض . تارة بالاحاد والعشرات ، وتارة بالآلاف . حتى شاع في الدواوين وعلى السنة الناس ان الوسيلة هي الطريق الوحيد القصير ، وقرر في ضمائرهم ان لا شيء يعمل ان تكون ذا جاه ، او محسوبا ، او ان تسلك على اية حال طريقا غير مستقيم !

ومتى فقدت النفوس الثقة في الخير والواجب ، والامانة

والضمير ، فقد فسد كل شيء ، وسرى القلق والتوجس ، وعم
الاهمال والاستهتار . وقد انتهينا الى هذا . وانتهينا معه الى
ما هو ادهى : انتهينا الى الشك المطلق في صلاحية الادارة المصرية ،
والى الترحم على ايام الاحتلال . وهذه كارثة . فليس اخطر من
ان يكفر المواطن بوطنه وبشعبه وبنفسه .

ان الجريمة التي ارتكبتها سياسة الاستثناء هي هذه
الجريمة . جريمة تزعزع ثقة المواطنين في الحكم الوطني . جريمة
انهيار الشعور الداخلي بقيمة الاستقلال ، وبضرورة الاستقلال !

اني اتهم ... اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تدفع
بالناس دفعا الى احضان الشيوعية ، وبخاصة ذلك الجيل الناشئ
من الشبان الابرياء .

حين يقال للملايين من الكادحين الذين لا يجدون ما ينفقون :
ان الشيوعية تضمن لكم كفايتكم ، وتمنع الترف الفاخر الذي
يزاوله اثريائكم .. يكون لها فعل السحر في نفوس الجماهير .
وحين يقال لهم : ان الشيوعية تحرمكم حرية العمل ، وحرية
القول وحرية التفكير ، فانهم لا يحسون انها تسلبهم شيئا حقيقيا
يملكونه .

ان الشيوعية لا تحوي سحرا ولا سرا . ولكن الجماهير معها
على رأي المثل العامي الذي يقول : « ضربوا الاعور على عينه قال :
خسارة خسارة ! » او المثل الآخر الذي يقول : « قالوا للقرد : ربنا
حيسخطك . قال حيمعلمني غزال ! » فالعور والقروء - اي الذين لا
يملكون شيئا يخسرونه ، واليائسون من ان تكون هناك حال اسوأ من
حالهم - هم الذين تسحرهم الشيوعية . لان كل تغيير قد يفيدهم .
وهو على أية حال لا يضرهم شيئا . اما الذين يملكون شيئا .
الذين يملكون حرية القول وحرية الفكر . ويملكون قبلهما حرية

الرغيف ، ولا تصطدمهم تلك الفوارق الاجتماعية السحيقة .. فهم
اعداء الشيوعية الطبيعيون .

لهذا لم تجد الشيوعية لها الى اليوم تربة صالحة في السويد
او النرويج او الدانمارك ، لا لان اهل هذه البلاد يملكون اية فكرة
عن الحياة اعلی مما يملك الشيوعيون ، ولا لان لهم اهدافا روحية
او عقيدة انسانية . بل لانهم يملكون اكثر ما تمنحه الشيوعية ،
ويفقدون بالشيوعية أشياء حقيقية يملكونها .

حين يقال للعامل في تلك البلاد : ان الشيوعية ستوفر لك
كفايتك وضمانات حياتك . قد يسخر ! فكفاياته كلها مضمونة ، بل
رفاهيته كذلك . وحين يقال له : ان الشيوعية ستضمن لك عملا
دائما ، وتحميك من نتائج التعمل قد يسخر ! لانه يجد ضمانات
حياته عاملا ومتعملا ، ولا يحس قلقا في حياته من هذا الجانب
او ذاك .

ولكن حين يقال له : ان الشيوعية ستجندك للعمل بلا حرية
ولا اختيار ، او ستقضي على حريتك النقابية ، او ستضغط على
حرية القول والكتابة والتفكير .. فان ذلك يفرمه ويرمجه . ذلك
انه يملك تلك الحريات فعلا . يملكها حقيقة واقعة في حياته اليومية ،
لا في الكتب والرسائل المكتوبة .. عندئذ تعجز الشيوعية ان تغزو
قلبه لانها لا تمنحه شيئا ينقصه ، وعلى العكس تسلبه مزايا حقيقية
يملكها .

كذلك الحال في امريكا . ان العامل الامريكي يعرف انه حينما
قرر عمال المناجم الاضراب ، وصرح الرئيس ترومان بانه يفكر في
التخاذ تدبير شديد لانهاء هذا الاضراب ، هتف العمال : « دع ترومان
ياتي هنا ويحفر الارض معنا » .

ونشر هذا الهتاف في الصحف على اعمدة بحروف بارزة ، فلم
يتحرك شرطي واحد ليقبض على عامل ، فضلا على ان يضربه
ويسجنه ويعاقبه .

وحيثما كتب صحفي طويل اللسان عن ابنة ترومان كتابية
بذيئة ، لم يزد رئيس الدولة التي تحكم نصف العالم عن ان يكتب
له رسالة شخصية « بأنه سيضربه بنفسه عندما يقابله ! » ولم
يتحرك « الجستابو » ليدق عنق هذا الصحفي ، او يقتله سرا ،
ويرمي بجسده في جنب !

والعامل الأمريكي يعلم ان روسيا لا يملك ان يهتف ضد
ستالين ، ولا ان يكتب حرفا واحدا عن أسرته .. ولهذا يفرغ من
الشيوعية !

اما هنا فعبود باشا يملك ان يحطم نقابات عماله التي ترتكب
جريمة مطالبتة بتنفيذ قانون من قوانين الدولة ، يزيد لقيمات في
نصيب العامل باسم اعانة الغلاء . والدولة واقفة تتفرج وتشجع
سماعته وهو يسحق هذه النقابات سحقا . والجمعية الزراعية
تشرذ موظفا خدما سبعة عشر عاما ، وخدمها ابوه قبله لانه طالب
باعانة الغلاء !

اللسان ان يتناول على ذاته الجريمة ! .

اما حرية القول وحرية الفكر ، فيسال عنها القلم السياسي .
وتسال عنها المعتقلات والسجون ، وتسال عنها حوادث التعذيب
في كل قضية سياسية في تاريخ مصر الحديث !

ان الشيوعية في ذاتها فكرة صغيرة لا تستحق الاحترام عند
من يفكرون تفكيرا انسانيا اعلى من الطعام والشراب ، وعند من
يعرفون افكارا اخرى عرفت انسانية قبل الشيوعية ، وهي اعدل
وارقى . ولكن الاوضاع الاجتماعية القائمة تضفي على الشيوعية
سحرا وجاذبية ، واذ كنا نعتقد ان الشيوعية فكرة تمسقية وضيقة،
وفيها من سوء الظن بالبشرية ، ومن الاحقاد المسمومة ما فيها ..
فاننا نعتبر الاوضاع القائمة مجرمة ، ترتكب في كل يوم جريمة
تحبيب الشيوعية للجماهير المحرومة وتزيتها في نفوسهم ، وتدفعهم
اليها دفعا ، للخلاص من ذل الاقطاع ولذع الحرمان ، وظلم

الأوضاع المناقضة لطبائع الأشياء .

وأخيرا فإنا اتهم الأوضاع الاجتماعية القائمة بأنها مناقضة في جملتها وتفصيلها لروح الدين كله . الدين منذ أن عرفت البشرية أديانها السماوية ، وهي أكثر مناقضة للإسلام بكل تأويل من تأويلاته . وكل ما يدعيه المحترقون من رجال الدين ليسندوا به هذه الأوضاع ، إنما هو افتراء على الدين ، لا يجد له سنداً من حقائقه ومبادئه : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

إن الإسلام لمصرخ في وجه الظلم الاجتماعي ، والاسترقاق الإقطاعي وسوء الجزاء ، وأنه ليمد المكافحين لهذه الأوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع .

وما من وضع اجتماعي هو أبعد عن روح الإسلام من أوضاعنا القائمة ، وما من أثم أكبر من أثم الذين يدينون بالإسلام ، ثم يقبلون مثل هذه الأوضاع ، أو يبررونها باسم الإسلام ، والإسلام من مثلها براء .

إن هذه الأوضاع غير قابلة للبقاء والاستمرار . ذلك أنها مخالفة لروح الحضارة الإنسانية بكل معنى من معانيها . مخالفة لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته . مخالفة لروح العصر الحاضر بكل مقتضى من مقتضياته . . ومن ثم فهي لا تحمل عنصراً واحداً من عناصر البقاء ، يعلى لها في الأجل ، ويمنحها فرصة البقاء .

في مفارق الطريق

هذه الاوضاع الاجتماعية القائمة غير قابلة للبقاء والاستمرار . هذا ما يحسه لا الذين يعارضونها وحدهم ، بل الذين يحاولون ان يقيموا لها الاسناد ، فانه ينبغي ان نشهد انهم ليسوا من الغباء بحيث يطمثون الى ان مثل هذه الاوضاع يمكن ان تمتد بذاتها كثيرا او قليلا . لذلك هم يحاولون ان يقيموا لها الاسناد الزائفة لتعيش فترة طويلة او قصيرة . . هم يضيفون بين آن وآخر مواد جديدة الى قانون العقوبات تشمل ما لم تكن تشمله المواد السابقة من الاحوال ، او تضيف عقوبات لم تكن المواد السابقة تتضمنها . رجاء ارهاب المكافحين في سبيل العدالة الاجتماعية ، بآية طريق ، وبأي عنوان !

وهم يزيدون الاموال المرصودة للدعاية لهذه الاوضاع ، فتتحرك اقلام وتنشأ صحف ، وتنضم في الظلام مؤامرات على التشكيلات النقابية وعلى الهيئات المكافحة ، قوامها المال ، وقوامها الترهيب والترغيب ، وفي يدها سيف المعز وذهبه : هذا لمن شاء ، وذلك لمن اراد !

وهم يتحدثون بين الحين والحين عن . . العدالة الاجتماعية ! اي والله عن العدالة الاجتماعية . وعن الطبقات المحرومة ، وعن ضرورة تحسين الاحوال . وكثير هم « الباشوات » الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية البخور في هذه الايام ، اذ كان ذلك العلف مخدر للجماهير الكادحة ، يهدئ اعصابها ، ويسيل لعابها ، ويمنيها بالعدل الاجتماعي الذي لا تكافح من اجله وحدها . بل يكافح له معها « الباشوات » العظام ! فما عليها الا ان تستريح ، وتستبشر ، وتنام !

ولكن شيئاً من ذلك كله لن يجدي فتيلاً ، فالطبيعة والحياة والدين والحضارة الانسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعاً .
انما هي تملأت فارغة ، ذاهبة مع الريح في الهواء .

ونحن اليوم في مفارق الطريق . كلنا قد انتهينا الى ان
الامراض القائمة لن تدوم . كلنا متفقون على هذه الحقيقة ، حتى
اولئك الذين يقيمون من حولها الاسناد . انما تختلف الآراء حول
الوضع الجديد الذي ينبغي ان يخلف هذه الامراض . والتفكير في
هذا واجب ، فلا بد من وضع اجتماعي معين يحل محل هذا الوضع
الذي يدق بيده او بأيدي المتشبهين به ، كل يوم مسماراً في نعشه ،
والمسار الاخير قريب قريب !

من فريق يهتف بالاشتراكية ، ومن فريق يحلم بالشيوعية ،
ومن فريق يدعو الى الاسلام .

والامراض القائمة تجاهد الجميع ، لان واحداً من هذه الحلول
كلها لن يدعها في سلام !

هي طبعا تكافح الشيوعية بادىء ذي بدء جهاراً نهاراً بلا تقية
ولا مداراة . وهي تكافح الاسلام فتداوره تارة ، وتنكل به تارة ،
حسبما ترى من القوة التي تسنده ان كانت خطراً حقيقياً واقعياً ،
او كانت خطباً ومواقف يطفئها الكلام . وهي تدع اسم الاشتراكية
يمر ، حين لا تحسها خطراً حقيقياً قائماً ، فاما حين تحسها قوة
حقيقية فهي تكافحها كفاح الشيوعية وكفاح الاسلام .

لن نسلم الامراض الاجتماعية المستغلة لواحد من الثلاثة
اذن ، ولا بد من كفاح منظم رتيب ، طويل الاجل . كفاح قلم .
وكفاح بحث . وكفاح تنظيم . وكفاح تكتل الى جانب فكرة من هذه
الفكر ، لا تقاذ هذا الوطن المشرف على الانهيار .

هذا في الداخل . فاما في الخارج ، فهناك كتلتان ضخمتان : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الرأسمالية في الغرب . وكتاهما تبث دعاية مأكرة في جنبات الارض ، قوامها : أن ليس في العالم الا كتلتان ووجهتان : الشيوعية والرأسمالية . وأن ليس للأمم الباقية مفر من أن تكون الى جانب هذه الكتلة او تلك ، فليس هناك من سبيل الا هذا او ذاك !

أن الشيوعية تخاطب الشعوب المستغلة ، والجماهير الكادحة ، فمن مصلحتها أن تدفع هذه الجماهير تفهم أنها أن لا تكن في صف الشيوعية ، فستكون في صف الرأسمالية ! والجماهير حين تخير على هذا النحو ، خيرتها واضحة ، وطريقها مرسومة ، وقد ذافت من الرأسمالية الويل ، فالشيوعية وحدها أذن طريق الخلاص !

والرأسمالية - أو الديمقراطية - تخاطب الهيئات الحاكمة ، والطبقات المستغلة ، فمن مصلحتها أن تدفع هذا الفريق يفهم أنه أن لا يكن في صف الرأسمالية ، فسيكون في صف الشيوعية ! والاسياد المستغلون حين يخبرون على هذا النحو ، خيرتهم معروفة ، وطريقهم مرسومة . وهم يفرقون من الشيوعية فرق الهعجي من الجن والغيلان !

ولما كانت الكتلة الغربية كالكتلة الشرقية ، انما تتنازعان رقعة العالم ، وتديران المعركة لحسابها الخاص ، على حساب الشعوب والأمم التي تدور في فلك هذه او تلك ، فإن دعايتهما على هذا النحو مفهومة ، وهما منطقتان مع انفسهما ومسح أهدافهما بلا جدال !

فاما نحن فما شأننا في هذا الصراع ؟

نحن جرينا في فلسطين قريبا أنه لا الكتلة الشرقية ولا الكتلة الغربية تقيم وزنا للمبادئ التي تنادي بها ، أو تقيم وزنا لنا نحن أنفسنا ، حين يجد الجدد ، وتكشف النيات ، وتنطق المصالح والشهوات .

فنحن اذن لا راحم لنا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء . ونحن اذن
غرباء مستضعفون في صف هؤلاء او في صف هؤلاء . ونحن اذن
الذئاب في القافلة سلطنا هذا الطريق او ذاك .

وانا افهم جيدا ان نهون عند الآخرين ، فاما ان نهون على
انفسنا فذلك امر فهمه علي مسير ، لانه لا يخالف طبيعة الرجل
الكريم فحسب ، بل يخالف طبيعة الانسان !

انني اعرف ان في هذه البشرية من يستطعمون اللذات والمهانة ،
ويستلذون الاذى في الجسم والكرامة . ذلك انهم مرضى يعرفهم
علم النفس ، ويضعهم في قوائم المرضى تحت عنوان خاص .

ولكنني لا اعرف ان امة كاملة يمكن ان تكون مصابة بهذا
المرض النفسي المعروف ، ولا ان جيلا كاملا يستلذ الاذى والمهانة
بحال من الاحوال .

تري احوالنا الاوضاع الاجتماعية القائمة امة من العبيد ، لا
للسادة فيها فحسب ، ولكن لاية سيادة تلوح لها من جانب الافق
الغربي او الشرقي على بعد الوف الاميال !

انني اعيد الامة الاسلامية ان يكتب عليها كلها هذا الهوان .
فلقد وقف واحد منها في وسط « الكونجرس » الامريكي بفهم
الامريكان ان الضرر وحده هو الذي يصور لهم وللروس ، ان
ليس في العالم كله الا كتلتان : كتلة الشيوعية وكتلة الديمقراطية
.. ان هنالك كتلة اخرى ثالثة ... كتلة الاسلام .

ارتفع هذا الصوت في قلب امريكا ، منبعثا من قم المرحوم
« السيد لياقت علي خان » رئيس وزراء الباكستان ، بل من قلبه
وضميره ، بل من كرامته وكرامة شعبه ، وكرامة الشرق المسلم ،
الذي يربأ بنفسه من المهانة ، ويرى لنفسه وجودا وكيانا ، ويأبى
ان يقف في ذيل القافلة وقفة الدليل الخانع الجبان ، تلك الوقفة
التي يدعوننا اليها مع الاسف شباب من هذا الجيل بلا تحرج ولا
اباء .

في هذا العالم رقعة فسيحة متصلة الحدود ، من شواطئ
الاطلنطي الى جوانب الباسيفيكي ، تضم اكثر من ثلثمائة مليون
من الناس ، يشتركون في عقيدة واحدة ، ونظام معيشي واحد ،
وتقاليد متقاربة ، ولغة ان لا تكن واحدة فهي في طريقها لان تصبح
لغة التفاهم للجميع . ودع عنك عشرات الملايين المتفرقة في اوروبا
 وآسيا وافريقية ، ممن يدينون بهذه العقيدة ، وبذلك النظام الذي
تحمله العقيدة .

فأي عقل يمكن ان يغفل هذه الكتلة الضخمة المتصلة الحدود
من الحساب ؟ ان الكتلتين الشرقية والغربية لا تغفلان هذه الكتلة
الثالثة من حسابهما اغفالا حقيقيا ، كما يبدو في دعائيهما الماهرة
المأكرة ، انما هما تتنازماها تنازع الاشياء والمتاع ! ولكل من
الكتلتين عذرها ، فما عذرنا نحن ان نرضى بان نكون كالأشياء
والمتاع ؟

عذرنا ان الاوضاع الاجتماعية القائمة التي نعانيها في الداخل،
لا تدع لنا ان نفكر في روية ، ولا ان نحس في كرامة ، ولا ان ندرك
ما وراء الدعايات من اهداف !

هذا صحيح ! ولكن هذا العذر يصلح لفرد او افراد . اما
الشعوب والامم فما هي بمعدودة ان تدع نفسها كالأشياء التافهة
او سقط المتاع ، متى كان لها مخرج يحفظ عليها كرامتها ، ويرد
اليها اعتبارها ، ولا يدمها في ذيل القافلة ، وفي مركز التابع الذي
لا يؤبه لرايه ولا يستشار !

ولو لم يكن لها هذا المخرج لأوجبت عليها الكرامة الانسانية ،
والاعتبارات القومية ، ان تبحث عن مخرج ، وان تخلقه خلقا ،
وتنشئه انشاء . فكيف وهذا المخرج في يدها ، وفي متناولها ، وفي
رصيدا الحاضر الذي لا يعز على التناول !

الا تكن ذلة المبيد ، فانه نوع من التفكير عجيب !

واعتبار آخر ...

لقد جربنا - حتى شعبنا - تلك القوالب الجاهزة التي استجديناها كالشحاذاين من هنا ومن هنا ومن هناك . جربناها في كل جانب من جوانب حياتنا الفكرية والاجتماعية والتشريعية، حتى انتهينا بها الى « كرنفال » مضحك من المظاهر والازياء . ازياء الفكر وازياء الجسم سواء !

ولناخذ مثالا ذلك التشريع الذي استوردناه أولا من فرنسا ، ثم ما نزال نستورده من هتى بقاع الارض ، كلما احتجنا ان نشرع لهذه الحياة .

ان هناك تصادما دائما بين روح التشريع الذي نستخدمه وروح الشعب الذي نسن له هذا التشريع . ان الشعب يسم بالبطولة كل خارج على القانون ، ويبدل له التشجيع والعون والمساعدة ، بقدر ما ينفر من السلطات القائمة على القانون، ويضن عليها بثقته ، او مساعده على جمع الادلة والقرائن والشهادات .

لماذا ؟ . يقولون : ان الشعب جاهل ا كلا . فليس هذا هو السبب الاصيل ، فالتعلمون كذلك لا يستجيبون لندوة القانون . ان السبب الحقيقي كامن في التنافر بين روح الشعب وروح التشريع المستعار ، لان هذا التشريع لم يستمد من ظروفه الاجتماعية ، وملابساته التاريخية ، ومشاعره ومقائده ، وتقاليده وعاداته . انما استمد من وسط اجنبي من روحه جميعا ، وسط له تاريخه الخاص ، وله دياناته الخاصة ، وله حاجاته الاجتماعية وظروفه الخاصة . والقانون ما لم يكن تلبية لروح الشعوب وحاجاتها ، فلن تخلص له ولن تنقاد !

نحن لا ندمو الى عزلة فكرية او اجتماعية من ركب الانسانية المندفع . فنحن شركاء في القافلة ، شركاء في الحضارة البشرية . بل نحن ادبنا لهذه الحضارة الكثير، وقمنا فيها بدور ايجابي ضخم،

قد لا نغفلن اليه اليوم ولا نحترمه ، الا اذا تخلصت نفوسنا من
مشاعر العبيد !

ولكننا ننمى هذا التسول الدائم الذي نزاوله ، وهذا
الاستجداء المزي الذي نحن عاكفون عليه ، وهذه الاستعارة التي
لا ترددها ، ولا تؤدي ما يقابلها . وما دمنا نستجدي دائما ولا نعطي
شيئا ، فنحن على مائدة الانسانية في موضع الشحاذ المتسول ، لا
في موضع الواهب الكريم .

وقد يتسول المعلم ويستجدي المسكين . فاما ان يكون لك
رصيد ضخم ثم تلبس اسمال الشحاذة ، وتمد يد الاستجداء
باسم المشاركة في الحضارة ، فذلك مشاركة لا يعرفها الا الشحاذون
وحدهم ، ولا يطمئن اليها الا العبيد !

هناك معنيان للحضارة : فاما الاول فهو ان يكون لنا نصيبنا
التميز البارز في بناء هذه الحضارة ، وزينا الدائي المستمد في
اصوله مما عندنا ، المنتفع من تفرعاته وتطبيقاته بكل ما افادته
الانسانية من التجارب . واما الثاني فهو ان نأخذ القوالب
الجاهزة ، والسمات الظاهرة ، وان ننقل نقلا كل ما نراه بلا روية
ولا تفكير ولا تعقيب .

المعنى الاول يفهمه الادميون ، والمعنى الثاني تفهمه القروء ،
واخشى ما اخشاه ان لا تكون قد فهمنا الا هذا المعنى الاخير !

وبعد فان الجبهة الغربية المؤلفة من امريكا وانجلترا وفرنسا
تستعبدنا وتستذلنا ، ولا مكان لنا فيها الا مكان الذبول والعبيد ،
وكل تفكير في الانضمام اليها انما ينشأ من المصلحة المشتركة بين
الراسمالية المستغلة والاستعمار الذي يحميها ، وكل ستار آخر
انما هو ستار خادع ، للتمعية على الجماهير ، التي أصبحت لحسن
الحظ لا تنخدع بهذا الستار .

لقد منحنا أرضنا وسماؤنا ، وأقواتنا وأرزاقنا ، ومصالحتنا وأرواحنا ، الى هذه الجبهة مرتين في خلال ربع قرن ، ثم ابنا منها بصفعة كف او ركلة قدم في نهاية المطاف . فاما في هذه المرة الثالثة فاننا لن نؤوب بذلك المصير السليم الذي قد يحمد العبيد ، ويسجدون للسلادة شكرا على السلامة والعافية . بل سنؤوب بالتدمير المطلق الشامل لحياتنا كلها الى عدة اجيال .

ان الدفاع المشترك في اية صورة من صوره ، او الانضمام الى معسكر معين بأي وضع من أوضاعه ، معناه تعريض هذا البلد الاعزل للخراب والدمار . هذا البلد المكشوف الذي ما تزال حياته تتوقف على خزان اسوان « وقنبلة واحدة تكفي لتحطيم هذا الخزان » اي لتحطيم مصر كلها اجيالا بعد اجيال !

انها جريمة وطنية ان نربط انفسنا الى عجلة معينة في صراع الجبابرة القادم ، فوق انها جريمة في حق الكرامة والشرف والضمير . الكرامة التي داستها الديمقراطيات الغربية مرتين ، وما تزال تدوسها في تبجح ، لا يقيم لهذا الشعب وزنا ، لانه يرتكن الى الصلحة المشتركة بينه وبين عهود الانقطاع .

ان هذا العالم العربي الممزق في برائن الاستعمار الغربي ، يستحق اللعنة والاحتقار ، اذا مد يده الدليلة ليسند الغرب الفاجر في باسائه مرة اخرى . والشرق لا يمد يده ، وانما يمطي ظهره للغرب ليضع اقدامه ، ويمبر الهاوية ، ثم يركل الحمار الدليل الذي امتطاه !

ان الغرب الراسمالي والاشتراكي سواء ، يناصبنا العداء كله كتلة واحدة . وفي فلسطين شاهد من ذلك العداء الناصب قريب . وهو في الوقت ذاته يسومنا الدل والخسف في تبجح ظاهر ، ولا يخفض من نبرة الاستملاء الفاجر الا في ابان الهزيمة والانكسار . ونحن لم ننس بعد استهانة جنود الحليفة في الحرب الاخيرة بارواح المصريين ، الذين كانت هرباتهم تدوسهم باستهانة كما تداس

الكلاب ، وتدوس كراماتهم واعراضهم كما تداس الرقيق والعبيد .
وما تزال هذه الحوادث تجري في الشقة العريضة التي يحتلونها
على ضفة القنال (١) .

نحن لا ننسى نظرات الازدراء التي كانت تطل من ميون شذاذ
الافاق الذين حشدتهم الحليفة في ارضنا ، وهم يتوجهون بها الى
الجماهير في غدوهم ورواحهم ، بل يتوجهون بها الى ضباط البوليس
وعساكره في اية مرة حضر هؤلاء للتفرج على حادثة من حوادث
المجندين . فما كان للبوليس المصري الا ان يتفرج ، والحلفاء
يدوسون المصريين بسياراتهم ، او يركلونهم بأقدامهم ، او يبتزون
منهم النقود في الطرقات .

لقد شبعنا من منظر السكاري العربدين من مجنديهم ،
والمائمات المستهترات من مجنداتهم ، ومن تلك القذارات الآدمية
التي جلبوها معهم ، او التي خلفوها لنا ، مئات والوفاء من الاعراض
المثلومة ، والكرامات المهذرة ، والعار الذي تائف منه الرجال ...
والنساء !

لقد استكفينا جوها لنظم شذاذ الافاق من جنود الحلفاء ،
وعربا لتشتغل مصانعنا لكسوتهم ، بالتآمر مع رؤوس الاموال
وممثلها في عالم الصناعة وفي كراسي الحكم سواء .

لسنا مستعدين مرة اخرى ان نخطف بنائنا من الطرقات
والبيوت ليهدر عفافهن في المعسكرات والسيارات ، ولا ان نخطف
اقواتنا وطعامنا من المزارع والاسواق ، لنصاب نحن بالسل
والجوع ، ولا ان نخطف اموالنا وارصدتنا من البنوك ، لنواجه
الازمات والكساد . ثم يقف بعد ذلك مستعمر متبجح مثل مستر

(١) جاء هذا الكلام في الطبعة الاولى قبل خمسة عشر عاما .

تشرشل ، ليمن علينا بنعمة الحماية ، ويطالبنا ، لا بالتنازل عن
ديننا على بلاده ، بل بدفع تعويض عن تضحيات جنوده .. جنوده
السكراري العربدين الاوباش !

فاما فرنسا فصفحتها في تونس والجزائر ومراكش ، وفي مصر
ذاتها اقلد من صفحة الانجليز .. ففرنسا التي وقفت في مؤتمر
(مونترية) حجر عثرة في طريق الغاء الامتيازات ، ولو ان الانجليز
لمصلحة خاصة - كانوا يريدون قصصة جناحها في الشرق
العربي شيئا فشيئا لظلت حجر عثرة في طريقنا حتى الآن . فاما
فظائعها في تونس والجزائر ومراكش ، فهي فضائع البربرية المتوحشة
في القرون الوسطى ما تزال .

وفرنسا امة انتهت ، وهي في دور الانحلال الاخير ، على الرغم
من كل دعايتها في الشرق العربي ، ولكنها ماضية في وحشية
البرابرة وتعصب الصليبيين ، تقتل وتحرق ، وتعذب وتشوه ،
وتسرق وتسلب ، وترتكب في المغرب العربي ما ارتكبه المغول
والصليبيون من آثام .

ولقد كان عبيد فرنسا هنا في الشرق يردون علينا دائما حين
نحدثهم عن « امهم الحنون » بأنه لا يجوز الحكم على فرنسا
بتصرفات السياسيين ، فالسياسة لا قلب لها ولا ضمير . فها هي
ذي كبيرة صحفيات فرنسا « مدام تابوى » تصفح العبيد هنا
بتصريحاتها المجيبة . ففي زيارتها الاخيرة لمصر تلقت مندوب احدي
صحفنا غاضبة ، لا لشيء الا ان رئيس الحكومة المصرية رد على
رسالة زعيم من زعماء المغرب ، يؤيد فيها حق الحرية . حتى لقد
قالت لذلك المندوب : كنت قد اعددت مقالا عن بلادكم ولكني لن
اتشره . فماذا كسبتم من تدخلكم في شؤوننا بالشمال الافريقي ؟ !

وبلع العبيد في مصر هذه الصفة ، وعادوا يسهبون بحمد
فرنسا امهم الحنون !

فاما امريكا : فالدين لم يعيشوا فيها ولم يروها ، قد لا يذكرون

لها الا خيانتها لنا في قضيتنا بمجلس الامن ، وفي حرب فلسطين .
ولكن الذين عاشوا فيها ، وراوا كيف ولغت صحافتها ومحفطات
اذاعتها وشركات افلامها في كرامتنا وفي سمعتنا ، وكيف نشرت
ذلك بعماء واضح واحتقار مقصود ، او احسوا ذلك العداء العنيف
لكل ما هو اسلامي وشرقي بوجه عام ، او عرفوا كيف ينظر الامريكان
للعوليين عامة ومدى ما يكونون لهم من احتقار . هؤلاء يعرفون ما
هي امريكا ، ويعرفون كيف يجب ان يردوا لها هذا الجعيل وذلك !

ولقد لقي الالاي التركي الذي ذهب الى كورية جزاءه الحق
من الامريكان ، وعرف نصيبه ونصيب اي جيش شرقي يلذهب
لمعاونة هؤلاء المتخطفسين على الشرقيين . لقد تركوه يحمي مزرعة
هزيمتهم ، فلما قام بدوره تركوه بلا حماية من الطائرات ، وبلا
معاونة من السيارات ، بل بدون ذخيرة ودون طعام !

وانه لمثل بسيط لما ينتظر جيوش العبيد في أي حلف مشترك .
فالانراك في نظر الامريكان هم ارقى الشرقيين لسبب تاه بسيط
انهم بيض البشرة ! ومع ذلك فتلك معاملتهم لهم في الميدان . . معاملة
السيد الخائن الجبان !

تلك قصة الكتلة الغربية معنا — بما فيها من راسمالية
واشتراكية — فما هي قصة الجبهة الشرقية !

لقد كشفت لنا الشيوعية عن قيمة مبادئها التي تبشر بها يوم
وقفت تسليح اسرائيل . واسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تقوم
على عنصر الدين وحده في الارض . وعنصر الدين هو اول ما تنكر
الشيوعية ان تقوم عليه الدول ، وآخر ما تفكر في احتضانه والدفاع
عنه . ولكن الشيوعية لا تقيم وزنا الا لمصلحتها الخاصة ، وتحت
اقدامها المبادئ التي تزخر بها الدمايات .

والشيوعية قد تمنحنا الخبز ، وتعفي نفوسنا من مرارة النظر
الى الثراء الفاحش الفاجر الذي تنفر من رؤيته البشعة فطرة
الانسان ! ولكنها تمنحنا الخبز لتسلبنا مقدساتنا كلها في الحياة ،

لا مقدساتنا الدينية ، ولكن مقدساتنا الانسانية جميعا ، لنحبس نفوسنا في اطار الخبز والكساء .

وقد يبدو الحديث عن المقدسات الانسانية ترفا في مصر ، او حديثا عن اوهام وخيالات لا وجود لها في حقيقة الواقع الاجتماعي .

وهذا صحيح . . فما يمكن ان تعيش هذه المقدسات في اوضاع اجتماعية كاوضاعنا القاتمة . ان الحطام الادمي الذي يمد بالملايين في مصر ، لا يتسنى له الشعور بتلك المقدسات ، لانه مشغول بشعور الجوع والحرمان .

ولكن ما القول : اذا كان هناك نظام آخر يمنحنا الخبز الذي تمنحه لنا الشيوعية ، ويعطينا من بشاعة الشراء الفاحش وفوارق الطبقات ، ويحقق لنا مجتمعا متوازنا لا حرمان فيه ولا افتراء . . ثم يمنحنا في الوقت ذاته غذاء الروح ، وحرية الفكر ، والشعور الانساني الارقى بالانسان ، والحياة ؟

ما القول اذا كان هنالك نظام ، لا يدعنا ذيلا في القافلة : قافلة الشيوعية او قافلة الرأسمالية . . انما يمنحنا مع المائدة الاجتماعية المطلقة في الداخل ، كرامة دولية عزيزة في الخارج ، ويرد اليينا اعتبارنا في المجتمع الدولي ، وقد يعطينا من ويلات الحرب ، ويعفي الانسانية معنا من هذا البلاء ؟

ما القول اذا كان هنالك نظام يحل لنا مشكلاتنا الداخلية ، وفي الوقت ذاته لا يدعنا نقف ابدا من المائدة الانسانية وقفة المستجدي الدليل ، بل وقفة المساهم في هذه المائدة ، المعطي ما عنده ، وما عنده ليس بالقليل ؟

انني لاعجب كيف يمكن الانسان ان ينأى بنفسه عن موقف الكرامة الى موقف الدلة ، وعن دور المعطي الى دور المستجدي ، وعن مركز القيادة الى موقف التبعية . وهو قادر على الاختيار ، لو قاوم في ضميره شعور الاضطراب !

ان لدينا ما نعطيه ، ولسنا من الافلاس بحيث يتصور الكثيرون ، او بحيث تصورنا لانفسنا كتلة الغرب وكتلة الشرق سواء . انما تصورانا هكذا لغاية في نفس يعقوب ! ليحل التخاذل في نفوسنا محل الثقة ، والياس محل التطلع ، ولنسقط فرائس ذليلة مستغفلة في هذا الفخ او ذاك .

ان لدينا ما نعطيه ، ولكننا في حاجة لان نؤمن بانفسنا ، ففي هذا الايمان حياة ، وفي هذا الايمان نجاة .

في الإسلام خلاص

إذا اتضح أن الإسلام يملك أو يحل لنا مشكلتنا الأساسية ،
ويمنحنا عدالة اجتماعية شاملة ، ويردنا إلى عدل في الحكم ، وعدل
في المال ، وعدل في الفرص ، وعدل في الجزاء .. فإنه يكون بلا شك
أقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر ، نحاول استعارته ،
عن طريق التقليد ، أو على طريقة المشاركة في الحضارة الإنسانية
بالاستجداء !

أجل - إذا اتضح هذا كله - فالإسلام أقدر على العمل في
بيئتنا . أقدر من الشيوعية بكل تأكيد (وذلك على فرض تكافؤهما
في القيمة الإنسانية ، وتكافؤ أثرهما في العدالة الاجتماعية) فالإسلام
معنا هنا في الداخل ، ولن نحتاج إلى استجلابه من وراء الحدود ،
كما نستجلب القوالب الجاهزة ، فتجيء فضفاضة أو خائفة ،
لأنها لم تصنع على أمتنا ولم تفصل على قننا ، ولم تنبع من ألمانا
وآمالنا .

والإسلام صاحب لنا صديق ، صاحبنا الفاء وثلاثمائة عام على
الخير والشر ، وعلى النعماء والبأساء . صاحبنا كارها وراضيا ،
وبررناه أو عققناه . ولكنه بعد ذلك كله صديق ، له في الجوانح
هزة ، وفي المشاعر ذكرى ، وفي الضمائر أصداء ، وليس بالغريب
على أرواحنا ومشاعرنا ومبادئنا وتقاليدينا غربة الشيوعية ، التي
نحمد منها أشياء ونكره منها أشياء ، ونألف منها اتجاهها ، وننكر
عليها اتجاهها ، وتتوزع مشاعرنا آراءها على أية حال توزعا لا يضمن
معه توحيد الجبهة في طلب عدالة اجتماعية قوية كما نضمن توحيدها
إذا نحن هتفنا إلى العدالة باسم الإسلام .

والاسلام حجة قوية لا تملك لها الراسمالية المستغلة دفعا
كما تجد للشيوعية . والمخلصون للوطن والمجتمع في الدعوة الى
العدالة الاجتماعية ، الذين يريدون العدالة الاجتماعية لذاتها
ويجعلون منها هدفهم الحقيقي ، ولا يتخذونها مجرد ستار لتهييج
الجمهير ، ابتغاء لنشر مذهب معين ، هو الغاية الاولى ، والعدالة
وسيلة ... هؤلاء لا يملكون ان يغلوا سلاحا قويا كسلاح العقيدة
الاسلامية . سلاحا حاضرا في الايدي ، مذكورا في النفوس ، يدعى
باسمه فيستجاب ، وتستجاش العزائم باسمه فتذكو وتهيج ...

ان الذين يريدون تنحية الاسلام عن معركة العدالة الاجتماعية،
ليخوضوها تحت راية الشيوعية ، انما يخونون انفسهم ان كانوا
مخلصين في دعوى العدالة ، او يخونون قضية الجماهير ، جهلا
بقيمة القوة الكبرى التي يزودهم الاسلام بها ، او عداوة مريبة
لهذه القوة العظيمة ، او احتقارا لانفسهم وكفرا بقيمتهم ، ورضاء
كرضاء العبيد بفتات الموائد ووقفة الاذنان ...

انني افهم جيدا ان ينصب المستغلون والطفلة للاسلام ،
لينحوه عن هذه المعركة ، اما باستغلال المحترفين لاصدار الفتاوى
المكدوبة على الدين ، واما باضطهاد الدعاة الحقيقيين لعدالة
الاسلام ، واتهامهم بشتى التهم ، للتخلص من ذلك السيف الحاد
المصلت على رقاب البغي والاستغلال . فاما ان ينصب للاسلام دعاة
العدالة الاجتماعية ، فذلك امر هندي غير مفهوم . وان وراءه لخبيا
يجب ان يظن اليه الابرياء ، الذين يريدون العدالة لذاتها ،
ويكافحون للجماهير وحدها ، ويتجردون لهذه الغاية النبيلة بلا
رياء ولا التواء .

ولكن ما لنا نعجل قبل ان نعرض مشكلاتنا الاساسية على
الاسلام لترى ان كانت لها عنده حلول ؟

ما هي مشكلاتنا الاجتماعية التي نعانيها في اجتماعنا الحاضر،
وفي وضعنا الراهن ؟ ... انها :

- ١ - سوء توزيع الملكيات والثروات .
- ٢ - مشكلة العمل والاجور .
- ٣ - عدم تكافؤ الفرص .
- ٤ - فساد جهاز العمل وضعف الانتاج .

وهناك مشكلات فرعية اخرى ، تعد نمارا ونتائج لهذه
المشكلات الاساسية الكبرى ، او مضاعفات مرضية من مضاعفاتها .
فلنتناول هذه المشكلات واحدة واحدة ، نعرضها على الاسلام لننظر
كيف يعالجها في ثقة وهدوء وسلام .

سوء توزيع الملكيات والثروات

لم يعد احد يجادل في ان توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع
المصري توزيع سيء مختل ، يجب العمل على تعديله فورا . وليس
الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة ، انما الاختلاف على
الطريقة التي يعالج بها وضع لا يقبل البقاء .

وحين يصل الامر الى ان يملك الف ومئتان واربعة وتسعون
فردا ، مليونين من الافدنة الصالحة للزراعة في بلد يصل تعداداه
الى عشرين مليونا من الافدنة فانه لا يبقى مجال للاختلاف على
سوء التوزيع ، واختلاله ، وفساده .

والامر في الثروات المنقولة اشد سوءا ، فان من لا يزيدون على
الفين يملكون اكثر من ثلث الثروة الممثلة في البنوك والشركات !

تختلف الآراء اذن في طريقة العلاج ، لا في حقيقة الداء .
فرجل مثل محمد بك خطاب ، يفكر تفكيرا راسماليا واعيا ، ويحس
ان اوضاع الملكيات الزراعية يجب ان تتغير ، اتقواء لما تشهده من

عواصف مرتقبة في الافق القريب . . يقدم مشروع تحديد الملكيات الزراعية بحيث لا تزيد على حد معين ، وبحيث تشتري الدولة ما يريد ، وتكون به ملكيات صغيرة .

هو تفكير راسمالي بحث ، لانه لا يزيد على ان يحول الثروة العقارية المتضخمة الى ثروة منقولة متضخمة كذلك ، وكل ما يتقيه هو المظهر الفاحش البارز للاقطاع . ولكن الراسمالية الغبية في مصر لا تدرك مرماه ، فتثور عليه ، وتتهمه بالشيوعية ، وتطارده في البرلمان !

ام لعنا نحن الاغبياء ، والراسمالية هي الملكية الواعية ! نعم ! فالأقطاعيون يعلمون ان رقيق الارض حطام آدمي ، لا خوف منه ولا خطر . حطام قد أحاله الجوع والمرض مخلوقات ضعيفة هزيلة لا تحس لنفسها وجودا ولا كرامة ، ولا تفكر في عدل ولا نصفة . فمن الخير ان تبقى أموالهم مستغلة في الارض مسع هذا الحطام الذي لا يؤذي ، من ان يضطروا لاستخدامها في الصناعة ، حيث يتكثل العمال ، وينمو بينهم الوعي ، ويطالبون بحقوق الانسان في يوم من الايام !

فاما الدولة فقد حاولت هذه السنوات الاخيرة ان تصنع شيئا - في حدود العقلية الراسمالية بالطبع وفي حدود رعاية مصالح من تمثلهم من الملاك وأصحاب رؤوس الاموال - سنت ضريبة التركات ، وضريبة الدخل العام ، وأخذت بمبدأ الضريبة التصاعدية ، وأعفت صغار الملاك من الضريبة . . . وهي خطوات هزيلة لا يبدو لها اثر ، لان الاوضاع القائمة قد بلغت من الفحش والسوء مبلغا لا تعالجه هذه اللامسات الناعمة بقفازات الحرير اللطيفة !

لذلك تدعو الشيوعية دموتها : ان لا علاج ولا خلاص الا من ذلك الطريق المرسوم !

فما رأي الاسلام يا ترى الى جانب تلك الآراء ؟ وما خطته

وطريقته ؟

ان الاسلام يقرّ « مبدأ الملكية الفردية » . هذا ما لا شك فيه ، ويخالف النظرية الأساسية للشيوعية في هذا الاتجاه .

ولكن أية ملكية فردية هي التي يقرّها الاسلام ، ويكفل لها الضمانات ؟

انها الملكية التي تنشأ من أصل صحيح للتملك ، بوسائل صحيحة يعترف بها الاسلام .

والاسلام يعدّ العمل هو السبب الوحيد للملكية والكسب . العمل بكل أنواعه . عمل الجسم وعمل الفكر سواء . وعلى هذا الأساس يحرم الربا ، لان الزيادة التي ترد مع المال المقترض لم تنتج من عمل ، انما نتجت عن رأس المال . ورأس المال في ذاته ليس سبباً من اسباب الكسب الصحيحة ، ولا جزاء عليه ، لان الجزاء لا يترتب الا على العمل البشري وحده ، ولا جدال في ان هذا هو المبدأ الاساسي للتملك وللکسب في الاسلام .

كذلك يحدد الاسلام لتنمية المال طرقاً معينة ، ولا يقرّ اي نموّ يخرج عن حدود الوسائل المشروعة في هذه الوسائل ، لا يدخل فيها الربا - كما تقدم - ولا القامرة ، ولا الغش ، ولا الاحتكار ، ولا الربح الفاحش المخالف لكل سماحة ، ولا المستقطع من اجور العمال التي تبلغ نصف الربح ، كما يرى بعض فقهاء الاسلام . وبطبيعة الحال لا يعترف بالسرقة والنهب والسلب والاكره ، وسائل للتملك ، او وسائل لتنمية المال .

وكل ملكية لم تقم على الاسس الصحيحة التي يعترف بها الاسلام او قامت عليها ، ولكن نموها لم يتم بالوسائل التي يقرّها ، فهي ملكية زائفة لا يقرّها الاسلام ، ولا يعترف بها ، ولا يوفر لها الضمانات (1) .

(1) يراجع موضوع الملكية الفردية بتوسع في كتاب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » فصل « سياسة المال » .

هذا هو المبدأ الأول عن الملكية في الاسلام . ومن طبيعته ان يمنع التضخم الفاحش في الثروات منذ البداية . فالمال الذي ينشأ من الجهد الذاتي بالعمل ، والذي لا يربح ربحا فاحشا ، والذي تبلغ اجور العمال المنشئين له نصف الربح ، ولا يتضاعف بالربا ، او بالفس ، ولا يقوم على الاحتكار او الابتزاز . . لا يصل بطبيعته الى حد التضخم الذي يؤدي المجتمع ، ويخلق فوارق الطبقات .

وينبغي ان نضيف الى هذه العوامل الطبيعية عامل الضريبة الدائمة : ضريبة الزكاة . . هذه الفريضة التي تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٢٤٥ ٪ الى ٥ ٪ من اصل الثروة كل عام .

وهنا كلمة يجب ان يقال عن هذه الفريضة التي يشوهها المفرضون والمتحايلون ، فيصورونها بصورة الاحسان الملل لكرامة الانسان !

ان الدولة هي التي تجمع هذه الضريبة كما تحصل اية ضريبة ، وان الدولة هي التي تتولى انفاقها بنظام معين ، قابل للتطور حسب حاجات المجتمع واوضاعه . فإين هي الدالة في نظام كهذا النظام ؟ ان المفرضين والمتحايلين يحاولون دائما ان يرسوا صورة واحدة مزورة لعملية الزكاة : غني يتبرع ويتصدق ، وفقير يأخذ ويشكر ! ويد عليا معطية تحتها يد سفلى آخذة ، وجهها لوجه ، مباشرة بين فرد وفرد !

من اين جاؤوا بهذه الصورة الشائنة المزورة ؟ لست ادري !

انذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم ، جعلت حصيلتها خاصة بالافراض التعليمية البحتة ، من بناء للدور ، واداء للاجور ، وانفاق على ادوات الطلاب وكتبهم وغداثهم كذلك . . قيل : ان هذا نظام للتسول والشحاذة ، يهين كرامة المعلمين والطلاب ، لان هذه الاموال مأخوذة من اموال الاثرياء ، منفقة في شؤون الفقراء !

انذا سنت الدولة قانونا يجبي ٢٤٥ ٪ من كل ثروة كثرتم

قلت لتكوين الجيش وتسليحه ، وجعلت هذه الضريبة وقفا على هذا الباب من ابواب النفقات العامة . . قيل : ان الجيش يتسول ، وان كرامته تستفل ، لان الدولة اخذت نفقاته من اموال الاثرياء . والثري والفقر في ادائها سواء !

ان الزكاة ضريبة كهذه الضرائب ، تجبها الدولة ، ثم تنفقها في وجوه معينة تجبها كلا ثم تنفقها اجزاء . . وليست احسانا فرديا يخرج بعينه من يد ليعطى بعينه الى يد . واذا كان بعض الناس اليوم يخرجون زكاة اموالهم ، فيوزعونها بأيديهم ، فذلك ليس النظام الذي فرضه الاسلام . اما يصنع هذا البعض ذلك ، ويسلك هذا الطريق المباشر ، لان الدولة لا تجبي هذه الضريبة بيدها ، لتنفقها هي بمعرفتها في تلك الوجوه القابلة للتصرف بحسب تغير الاحوال .

ولكن الغفلة والاستغفال يلغنان في مصر ، ان يتحدث بعض الناس عن الزكاة على انها احسان فردي بذل النفوس ، ويعودها الاستجداء ! .

والجراة على الحقائق السافرة الاولى الى درجة التبعج ، لا تنشأ الا من غفلة المستمعين او القراء الى حد البلاهة . وكلاهما يتوافر في البيئتين المصرية والحمد لله ! بل يتوافر في بيئة من يسمونهم « المثقفين » الذين يستمعون لكل طائن في نظم الاسلام بترحيب وبشاشة ، لكي يثبتوا انهم مثقفون حقا ! السنة في عصر الاقزام وجيل الاقزام !

على أية حال لنمض في طريقنا لبيان المبادئ الاساسية في الاسلام من مشكلة سوء توزيع الملكيات والثروات .

لقد راينا ان الاسلام لا يعترف بملكية لم تقم على اساس صحيح للتملك ، او لم تنم بوسائل النمو التي يعترف بها كذلك ،

ثم رأينا انه يأخذ بنظام ثابت اثنين ونصفا في المائة من رأس المال ليخصصه لضمائم اجتماعية معينة لبعض الطوائف المحتاجة الى تلك الضمانات ، ليؤديها لهم دفعة واحدة يجعلون منها رأس مال لعمل ، او دفعات على هيئة مرتبات شهرية في حالة العجز عن العمل ، او بآية صورة من الصور التي يقتضيها النظام العام .

ولكن هذا ليس كل حقوق الاسلام في المال .

ان هذا انما يجري حين يكون المجتمع متوازنا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وعندما لا تكون هناك حاجات استثنائية للمجتمع ، لمواجهة الطوارئ الداخلية او الخارجية . فاما حين تتغير الاحوال وتبرز الحاجات ، فحق المجتمع مطلق في المال ، وحق الملكية الفردية لا يقف في وجه هذا الحق العام .

والاسلام يعطي هذه السلطات للدولة - ممثلة المجتمع - لا لمواجهة الحاجات المأجلة فحسب ، بل لدفع الاضرار المتوقعة .

وحماية المجتمع من الاعتداء الخارجي ، كحمايته من التخلخل الداخلي سواء في منح هذا الحق للدولة ، لتتصرف في الملكيات الفردية بلا حدود ولا قيود، الا حدود الحاجات الاجتماعية والصالح العام .

في يد الدولة ان تفرض اولا ضرائب خاصة - غير الضرائب العامة - كما تشاء . فتخصص ضريبة للجيش ، وضريبة للتعليم ، وضريبة للمستشفيات ، وضريبة للضمان الاجتماعي ... وضريبة لكل وجه طارئ من اوجه الانفاق ، لم يحسب حسابه في المصروفات العامة ، او تعجز الميزانية العادية من الانفاق عليه عند الاقتضاء .

وفي يد الدولة ان تنزع من الملكيات ، وان تأخذ من الثروات - بنسب معينة - كل ما تجده ضروريا لتعديل اوضاع المجتمع ، او لمواجهة نفقات اضافية ضرورية لحماية المجتمع من الافات :

آفات الجهل ، وآفات المرض ، وآفات الحرمان ، وآفات الترف ، وآفات الإحقاق بين الافراد والجماعات ، وسائر ما تتعرض له المجتمعات من آفات .

بل في يد الدولة ان تنزع الملكيات والثروات جميعا ، وتعيد توزيعها على اساس جديد - ولو كانت هذه الملكيات قد قامت على الاسس التي يعترف بها الاسلام ، ونمت بالوسائل التي يبررها - لان دفع الضرر عن المجتمع كله ، او انقضاء الاضرار المتوقعة لهذا المجتمع اولى بالرعاية من حقوق الافراد ، فنظرية الاسلام في التكافل الاجتماعي لا تجعل هنالك تعارضا بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع . وكل ضرر يصيب المجتمع يعده الاسلام ضررا يقع على كل افراده ، ويحتم على الدولة ان تقضي هؤلاء الافراد من انفسهم عند الاقتضاء !

ويبدو جليا مما تقدم ان التصرفات التي لا تبلغ هذا المدى مستطاعة بطبيعة الحال . فللدولة ان تبقي على الملاك اراضيهم ، ثم تعطيهم قدرا منها يزرعونه في حدود طاقتهم ، وتمنح حق الارتفاق على سائرها لمن تشاء من الافراد المحتاجين القادرين ، يستغلونه لحسابهم بلا اجر ولا كراء .

او ان تتدخل في ايجارات الارض ، فتحدد لها سعرا معينا لا تتعداه ، او نسبة من المحصول لا تجور على المستاجر ، او ان تتصرف في هذه الحدود حسبما تقتضيه الظروف ، بلا قيد الا ضمان العدل واجتناب الجور ، وهيئة قضائية كمجلس الدولة ، يمكن ان يوكل اليها هذا الضمان .

وهكذا نجد ان مشكلة « الملكية الفردية » لا تقوم الا في اذهان الذين لا يعرفون الاسلام ، او الذين يعرفونه ثم يكتمون ما انزل الله ، ويهتفون بضمانة الملكية الفردية على حسد : « ولا تقربوا الصلاة ... » !

ان الملكية الفردية محترمة في الاسلام بقيودها تلك واحتمالاتها

هذه ، لان هذا النظام يلبي ميول الافراد الطبيعية في التملك ، ويحثهم على بذل أقصى الجهد في الانتاج ، ثم يدع خيرات ذلك كله للمجتمع ، وفي خدمة المجتمع عند الاقتضاء .

وهو نظام اعدل من نظام الشيوعية وامهر واشمل .

اعدل ، لانه لا يمس الملكية الفردية الا عند الاقتضاء .

وامهر ، لانه يضمن بذل أقصى الطاقة من الافراد في الانتاج .

واشمل ، لانه يعد الفرد للمجتمع ، ويعد المجتمع للأفراد .

مشكلة العمل والاجور

اذا كان العمل هو وسيلة التملك ووسيلة تنمية الثروة في اعتبار الاسلام ، فهو اذن قيمة اساسية من القيم الاجتماعية والاقتصادية .

والاسلام يحيط العمل بقداسة ، ويمنح اليد العاملة توقيرا ، حتى ليقول نبي الاسلام الكريم عن يد ورمت في العمل : « هذه يد يحبها الله ورسوله » وتتوارد احاديثه تترى عن هذه القداسة : « من امسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له » ، « ان الله يحب العبد المحترف » . . « ما اكل احدكم طعاما قط خيرا من عمل يده » .

ولقد مر ان بعض فقهاء الاسلام يجعل للعامل الحق في الحصول على نصف الربح ، والمبدأ العام الذي يجعل للمعالم ان يستجد من الاحكام بقدر ما يجد من الاقضية ، يجعل للدولة من حقوق التشريع المالية ما تراه دائما وفق مطالب المجتمع المتجدد ، ومبدأ المصالح المرسل (اي مصالح المجتمع التي لم يرد فيها نص) ومبدأ سد الذرائع (اي توقي الاخطار المحتملة) كفيلا بمنح الدولة كل الحرية في التشريع ، حسب مقتضيات الاحوال في حدود العدل وكفاية العامل ورضاه .

وفي هذا المضطرب الواسع ، والحرية المريضة ، نسحة لتلافي كل ظرف طارئ ومواجهة كل حالة استثنائية ، على ضوء المصلحة الاجتماعية العامة ، وعلى ضوء المبادئ الإسلامية الأخرى ، التي تحرم الفبن ، كما تحرم كل اجراء يؤدي الى الترف في جانب والحرمان في جانب ، او يؤدي الى احتباس المال في ايد قليلة ، وتداوله في محيط ضيق . ومن اول مبادئ الاسلام الا يكون المال في ايدي الاغنياء وحدهم : « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » فكل نظام للاجور يؤدي الى هذه النتيجة هو نظام محرم لا يقره الاسلام . وعلى ضوء هذا المبدأ وتلك المبادئ العامة السابقة يمكن التشريع للاجور في اطمئنان .

اما سمات العمل فهي محدودة بالمبدأ الإسلامي العام الذي يحرم الضرر : « لا ضرر ولا ضرار » فكل ما يؤدي الى ارهاق صحة العامل ، او حرمانه حق الراحة الضرورية ، او حق الاطمئنان النفسي على حاضره وعلى مستقبله ، هو نظام محرم لا يقره الاسلام في العمل ولا يرضاه ، وعلى الدولة ان تشرع في هذه الحدود حسب المقتضيات .

ونظام العمل نظام متجدد ، ومقتضياته وظروفه ابداء في تغير . لهذا وضع الاسلام المبادئ العامة للتشريع له ، ولم يحدد قوانين ثابتة ، فتلك خطته العامة ليواجه حاجات الحياة المتجددة ، ويتقبل تجارب البشرية الواقعة في كل زمان ، ويبقى حارسا للاتجاه العام ، كي لا يحيد عن وجهته ، ولا يخالف عن روحه ومبادئه .

ولقد كانت هنالك بقية من الحديث عن « الملكية الفردية » آثرت نقلها الى هنا ، لانها حديث عن « الاحتكار » وللاحتكار صلة بالملكية العامة ، وصلة بالعمل والاجور . ذلك ان نظام الاحتكار كثيرا ما يؤدي الى تحكم صاحب العمل في العمال - فوق تحكمه في السوق والاستهلاك - لان العمال الذين يعملون في صناعة او حرفة محتكرة لفرد او شركة ، يعانون نظاما اشبه شيء بنظام الاقطاع . كل ما هنالك ان الاقطاع احتكار للأرض ، والاحتكار

احتكار للصنف .

والاسلام يحرم نظام الاحتكار ، كما يحرم ما يدعونه حقوق الامتياز بالنسبة الى الموارد العامة والخدمات العامة . وما يسمى اليوم « تأميم المرافق العامة » هو مبدأ رئيسي من مبادئ الاسلام .

فكل هذه الاحتكارات القائمة : كاحتكار صناعة السكر ، واحتكار صناعة المواد الكحولية ، واحتكار صناعة السمنت . وكل الامتيازات المعروفة : كامتياز شركة القنال ، وامتياز شركة الترام ، وامتياز شركات النور والمياه . . وما اليها ، كلها نظم لا يقرها الاسلام . اولاً : لانها وسيلة من وسائل التحكم في السعر والتحكم في العامل . وثانياً : لانها وسيلة لتضخيم الثروة بطريقة جائرة لا تحقق تكافؤ الفرص للجميع . وثالثاً : لانها وسيلة من وسائل تعطيل الانتاج ورفض التحسينات في كثير من الاحيان

ان المرافق العامة يجب ان تبقى ملكاً للشعب ، وحصولها استغلالها يجب ان تعود لخزانة الشعب لا لخزائن الافراد . . هذا هو الاسلام !

عدم تكافؤ الفرص

لا يكره الاسلام شيئاً كما يكره اختلال المساواة في اية صورة من الصور ، وفي أي وضع من الاوضاع ، ولا ينفي شيئاً من محيطه ، كما ينفي التفاوت بسبب المولد او الجنس او اللون او الثراء . . . انه يقر مبدأ التفاوت في الطاقة والمقدرة ، ولكن الجميع يجب ان تتاح لهم فرص متكافئة ، فاذا سبق احد بموهبته وحدها ، لا بأي اعتبار آخر ، فذلك هو السبق الوحيد الذي يقره الاسلام .

ليس احد بمولده خيراً من احد ، والولادة في اي بيت علا او هبط ، لا تمنح الفرد مزية زائدة ، ولا تسلبه مزية قائمة . وما عادي الاسلام شيئاً كما عادي فكرة الطبقات .

ويخلط بعض الناس في فهم الاسلام ، فيفهمون آية : «ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » بأنها اقرار لنظام الطبقات في الاسلام . وفي مجتمع مريض كمجتمعنا وحده يمكن ان يفهم هذا المعنى . . ان الارتفاع هنا فردي لا طبقي ، فردي قائم على الموهبة الشخصية ، لا طبقي قائم على المولد في طبقة . فالموهبة الفردية تهيب لصاحبها مكانه باستحقاق ، اما الولادة في بيت فلا ترتب لصاحبها مقاما واحدا لا يستحقه باستعداداته وعمله في الحياة . وهذا هو الفارق الاصيل بين النظام الطبقي ونظام الاسلام . وهو فارق حاسم لا مجال لتجاهله او الشك فيه . وهو يهدم النظام الطبقي من اساسه ، ويقرر التفاوت بين الافراد بتفاوت المواهب والاستعدادات .

من حق كل وليد في الامة ان يولد صحيحا خاليا من الامراض الوراثية كالاخرين . ف ضمانات الحياة التي تنهيا لاي ابوين في المجتمع ، يجب ان تنهيا لكل ابوين آخرين . لا لحسابهما وحدهما ، ولكن لحساب الوليد الذي سينسلانه ، لان فرصة الصحة يجب ان توفر له قبل ان يجيء . والا فليس هنالك تكافؤ حقيقي في الفرص بين وليد مصاب بالصرع الوراثي ووليد سليم . وتكافؤ الفرص لا يبدأ بعد الميلاد ، فالميلاد موعد متأخر جدا لتحقيق هذا التكافؤ . وعلى الدولة ان تضمن لكل وليد هذه الفرصة ، بمنحه ابوين صحيحين على قدر المستطاع .

ومن حق كل وليد ان يجد من الكفاية الغذائية ، والرعاية التربوية ، ما يجده كل وليد آخر في الدولة . فاذا حدث ان كان دخل ابويه او ظروفهما المعيشية لا تمكنهما من توفير هذه الفرصة له ، فان على الدولة ان توفر لهما هذه الظروف . . لا لحسابهما وحدهما كعضوين في هذا المجتمع ، بل لحساب هذا الوليد ، الذي يصبح تكافؤ الفرص بالقياس اليه خرافة ، اذا نشأ ناقص التغذية او مهملا في البيئة ، بينما هنالك ولدان آخرون محظوظون تتاح لهم هذه الفرصة دونه في الحياة .

ومن حق كل طفل بعد ذلك ان يجد العلم وان يجد الصحة ،

وان يجد الفرصة للعمل ، بحسب طاقته وموهبته . وهنا يكون للتفاوت الطبيعي حقه ، لانه ينشأ عن التفاوت في داخل الشخصيات ، لا في ظاهر المجتمع والملابس .

وفي تاريخ الاسلام من النماذج ما لا حصر له على سمنو المواهب الفردية بأصحابها الى اعلى المستويات الاجتماعية ، لا يضرهم مولد في بيت فقير ، ولا في بيئة متواضعة ، ولا في حرفة صغيرة ذلك انه : « لا فضل لاحد على احد الا بالتقوى » .

والاسلام لا يقر تلك الامتيازات الكاذبة التي تمنح للأطفال بمجرد مولدهم ، لمجرد ولادتهم في بيت او اسرة ، او تمنح للإبناء لمجرد خواطر الآباء !.. هذا الذي يتاح له الالتحاق بالكلية الحربية قبل زميله لمجرد انه من اسرة ارسقراطية او عسكرية ا وذلك الذي يتاح له العمل في وظائف النيابة او السلك السياسي لمجرد انه من اسرة ارسقراطية او قضائية ا وذاك الذي يرسل في بعثة علمية الى الخارج لا لانه الاول او الالىق ، ولكن لانه من بيت ارسقراطي ا.. كل اولئك امور لا يعرفها الاسلام ، لانها تصدم مبدا اساسيا من مبادئه التي جاء ليقررها في الحياة .

وعندما ننظر الى الاوضاع الاجتماعية القائمة من هذه الزاوية الاسلامية ، نطلع على شذاعات بشعة ، ونبصر بمخالفات صريحة ، بل نجد الاساس الاجتماعي كله مقلوبا .. ان الاسلام ليصرخ في وجه الاستثناءات والمحسوبيات ، التي أصبحت قوام الدولة وقوام المجتمع . ولو كان الامر للاسلام ما ترك هذا البناء كله يقوم على الظلم والتفريق والفساد كما قام !

فساد العمل وضعف الانتاج

احب ان الفت النظر بشدة الى ان هنالك خطرا حقيقيا مصلتا على رقابنا ، وعلى وجودنا ذاته كامة : خطر الفساد الشامل لكل جهاز العمل في الدولة وفي المجتمع ، ذلك الفساد الذي يؤدي

الى ضعف الانتاج العام ، بل الى الشلل في بعض الاحيان .

ولقد تحدثت عن هذا الشلل في مقدمات الكتاب ، ولكني احب الا اکتفي بما قلت هناك : اننا على حافة الهاوية والخراب بسبب تناقص الغلة وضعف الانتاج ، وان الفقر والبؤس والهوان لا تحقيق بنا لمجرد سوء التوزيع وحده ، بل لان مجموع الثروة القومية في ذاته ضئيل ، ولان الانتاج العام دون ما ينبغي ان يكون عليه بكثير .

هذا الشلل وذلك الفساد كلاهما وليد امراض اجتماعية شتى : وليد سوء توزيع الملكيات والثروات ، ووليد فساد نظام العمل والاجور ، ووليد تكافؤ الجهد والجزاء ، ووليد انعدام تكافؤ الفرص والقضاء بذلك على القوى والكفايات التي لم توهب نعمة الولادة في بيت مرموق ، او الاحتماء ببيت من بيوت الثراء ... ثم من بعد ذلك كله وليد الانحلال الخلقي ، الذي ينشأ من تلك العوامل جميعا ، وينشأ من خواء الضمير من عقيدة دافعة ، توقظ شعور الفرد بالواجب ، وتدفع المجتمع كله الى الخلق والتقدم والاستملاء .

ولقد اسلفنا رأي الاسلام في المشكلات الثلاث الكبيرة ، التي تنشأ بدورها - او تشارك في انشاء - هذه المشكلة الضخمة الرابعة . فالان ننظر كيف يعالج الاسلام هذه المشكلة ايضا .

انه يعالجها بازالة مسبباتها المادية الاولى ، ثم يعالجها بامتلاء النفس بالعقيدة الدافعة ، العقيدة التي تملأ فراغ النفس وخواءها ، وترفعها الى الله ، وتجعل للفرد هدفا اكبر من ذاته ، هو ذلك المجتمع الذي يعيش فيه ، وتلك الانسانية التي هو منها .

ولقد يظن المصابون بضحالة الروح ، وقزامة الدات ، وخواء الضمير ان هذا الذي نقوله هنا كلام ومظي لا رصيد له في واقع الحياة !

ونحن لا نكتب لهؤلاء .. فهؤلاء سيثوس منهم في كل زمان ،

وضمير الانسانية لم ينضب على الرغم من ابحاثهم له في كل مكان .

ان الفرد بلا عقيدة كلية تربطه بالارض والسماء ، قزم ضائع ، ولقي مهمل ، والعقيدة ضرورية له حتى في عالم الشيوعية الذي يسخر بالعوامل الروحية في الحياة ! فلولا حرارة العقيدة ما تلقى الالوف منافي سيبيريا وسجون القيصرية بمثل ذلك الحماس الذي مكن للحكم الشيوعي في نهاية المطاف !

ولقد انتهت بنا الاوضاع الاجتماعية المريضة الى فساد في الدم والضمائر ، واستهتار بالعمل والواجب ، لا يقتصر اثرهما على مجال دون مجال . وجريمة الاستثناءات في دواوين الحكومة انتهت بالمحظوظين والمنسيين سواء الى الاستهتار بالعمل ، لانه لا يؤدي الى ثمرة ، ولا يترتب عليه ثواب ولا عقاب . وجريمة الحرمان من عدالة الاجر والضمانات الاجتماعية في دائرة العمل انتهت بالعمل الى الاستهتار ، لان الغوضى ايسر من النظام ، في محيط لا عدالة فيه ولا وزن للجهد ولا جزاء . وجريمة انعدام تكافؤ الفرص اهدرت وبددت ثروات بشرية هائلة وحولتها الى فتات وحطام . وجريمة تكتيل الثروة كلها في ايد قليلة واحتكارها في حياة عدد محدود انتهت الى تمطل الملايين ، وتمضية اوقات فراغهم على المقاهي في المدن ، وبجوار الاجران في القرى ، وبذلك اصبحت هذه الملايين المتعطلة مستهلكة لا منتجة ، لانها لا تجد ما تعمل ، والدولة لا تجد المال للمشروعات الانشائية ، لانها لا تحصل الا على ميزانية هزيلة من ضرائب هزيلة ، اشفاقا على رؤوس الاموال ان تضار .

ثم اضيف الى هذا البلاء كله خواء روح الشعب من العقيدة الدافعة على العمل ، وحساسية الضمير التي تشيعها العقيدة . فتمت تلك الحلقة المفرغة الاليمة التي لا يحطمها الا الاسلام .

ان الاسلام ليحارب روح البطالة بكل روحه ، ويكافح اسبابها

بالوسائل التي اسلفنا . فيمالجها في عالم الضمير والشعور ، وفي دنيا العمل والواقع . فالبطالة هي اعدى اعدائه على اي لون وفي اي وضع ، وفي جميع الصور والاشكال .

الاسلام عدو التبطل الناشئ من تكديس الثراء ، فلا جراه الا على الجهد ، ولا اجر الا على العمل . فاما القاعدون الذين لا يعملون ، فثراؤهم حرام ، واموالهم حرام ، وعلى الدولة ان تنتفع بذلك الثراء لحساب المجتمع ، والا تدعه لذلك المتبطل الكسلان . والاسلام عدو التبطل الناشئ من الكسل ، وحب اللذعة ، والاسترزاق من ايسر السبل كالاستجداء . وهو ينذر الذين يتسولون وهم قادرون : ان ياتوا يوم القيامة وليس في وجوههم مرمة لحم !

والاسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ! فالعبادة ليست وظيفة حياة ، وليس لها الا وقتها المعلوم « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » وتمضية الوقت في التراتيل والدعوات بلا عمل منتج ينمي الحياة ، امر لا يبرفه الاسلام ، ولا يقر عليه تلك الالوف المؤلفة في مصر التي لا عمل لها الا اقامة الصلوات في المساجد او تلاوة الادعية والاذكار في الموالد !

ولو كان الامر للاسلام لجند الجميع للعمل ، فان لم يعملوا فالدولة حاضرة ، وحق العمل كحق الطعام ، فالمعمل زكاة للارواح والاجسام ، وعبادة من عبادات الاسلام ، التي يجب ان تقيمها الدولة وتهيم بها السبل . والبطالة مفسدة ، وعلى الدولة ان تقي المجتمع عواقبها ، وتأخذ الطريق على اسبابها ، فمن اتاهها بعد ذلك طوما ، فعلى الدولة ان تصده عنها ، وان تجنسه للعمل ما استطاع .

مشكلات اخرى يحطها الاسلام

وبعد . فان الاسلام لا يحل لنا المشكلات الاجتماعية وحدها ، ولا يقف بنا داخل حدودنا الداخلية في عزلة وانزواء .

انه يمنحنا الدائمة الشخصية التي لبرز بها في المجتمعات الدولية . فالاسلام عقيدة استعلاء واعتداد ، وهو يأبى علينا ان نكون ذبيلا وامعة ، او ان نسلم زمامنا الى كتلة شرقية او غربية ، او ان نقف تحت لواء غير لواء الاسلام . اللواء الذي يمكن ان تجتمع اليه كتلة ضخمة يتجاوز تعدادها ثلثمائة مليون ، والتي تتحكم بمراكزها الاستراتيجية ، وبمواردها الطبيعية ، في كتلتي الغرب والشرق سواء . لو كان لها علم واحد تؤوب اليه ، وتصطف تحته في استعلاء الاسلام وعزة الاسلام .

انه ليس من الضروري الآن ان تكون هناك حكومة واحدة في تلك الرقعة الفسيحة ، انما المهم ان تتكتل تحت لواء واحد ، فالاسلام هو الاسلام ، وقوانينه هي قوانينه ، وشخصيته من القوة والوضوح بحيث لا تندغم ولا تنهم في نظام آخر ، وروحه من القوة بحيث لا تخضع للتلاشي والغناء .

انما نحن مستعمرات ومناطق نفوذ ، لاننا تخطينا عن هذا الروح ، فتخلى عنا ، وخجلنا من الوقوف تحت لوائه فانف منا ، ونهنا في غمار الآخرين ، ففقدنا شارة العزة والاستعلاء والاحترام .

فلنعتزم ان نسلك الطريق الوحيد الذي يرد الينا اعتبارنا بين كتلتي الشرق والغرب ، ويمنحنا احترامنا في نظر الجميع . وقد يرد للعالم طمأنينته وامنه ، حين تنهض الكتلة المسلمة ، فتمسك بيدها ميزان التوازن والسلام ، وتضع حدا لهذا الجنون الذي تراوله الكتلتان باثارة حرب ثالثة ، لانها تقف وجها لوجه ، تتنازع وتتصارع علينا . نحن الممتلكات والمستعمرات والاشياء ! حينئذ لا ينمق الناعقون في ارض الاسلام من هنا ومن هناك :

انضموا الى هذا المسكر او ذاك ! كانه لا سبيل لنا الا هذا او ذاك ، وكأنه لا مفر من ان تكون ابدا في ذيل القافلة ، ولا يكون لنا يوما كيان مستقل ، ووجود محترم ، وكأننا لا نملك ان نبرز الى الوجود كتلة ثالثة تمسك بيدها ميزان التوازن ، وتمثل فلسفة اجتماعية خاصة ، قائمة على فكرة الاسلام الكلية التي تتضمن محاسن الاشتراكية والشيوعية جميعا ، وتبرا من عيوبهما جميعا ، ولزود على هذه وتلك آفاقا اعلى ، وعدالة اشمل ، ومثالا كريعا للحياة لم تعرف مثله الحياة .

ونحن نملك ان نقدم للبشرية هذه الفكرة التي تهدف الى تعاون انساني كامل ، والى تكافل اجتماعي صحيح ، وترمي الى رفع قيمة الحياة الى المستوى اللائق بعالم يصدر عن الله ، ومكاننا اذن ليس في ذيل القافلة ، ولكن في مأخذ الزمام (1) .

(1) فكرة الاسلام الكاملة من الحياة عالجت منها طرفا في كتاب « العدالة الاجتماعية » في فصل « طبيعة العدالة الاجتماعية في الاسلام » وموعدي بمعالجتها علجا شاملا كتاب مستقل عن : « فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان » بمشيئة الله .

لابد للإسلام أن يحكم

إذا أريد للإسلام أن يعمل ، فلا بد للإسلام أن يحكم ، فعما جاء هذا الدين لينزوي في الصوامع والمعابد ، أو يستكن في القلوب والضمائر ، إنما جاء ليحكم الحياة ويصرفها ، ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة ، لا بالوعظ والإرشاد ، بل كذلك بالتشريع والتنظيم . جاء ليترجم مبادئه ونظرياته ، نظاما وحياة ، ويجعل أوامره ونواهيه مجتمعا حيا وناسا من اللحم والدم ، يدبون على هذه الأرض ، ويمثلون بسلوكهم ونظام حياتهم ، وعلاقات مجتمعهم ، وشكل حكمهم ... مبادئ هذا الدين وأفكاره ، وقوانينه وتشريعاته .

ومما سبق عرضه من مشكلات اجتماعية وقومية ، وطريقة علاج الإسلام لها ، يتبين بما لا لبس فيه ضرورة الحكم للإسلام . والا فكيف يواجه هذه المشكلات وسواها ، وكيف يعالجها ويجد لها الحلول ؟

أنه لا يملك توزيع الثروة طبقا لحاجات المجتمع ، أو تحقيق العدالة بين الجهد والجزاء ، أو منح الجميع فرصا متكافئة في الحياة ، أو تجنيد القوى المعطلة للعمل والانتاج ، أو دفع الدولة الى اتخاذ موقف معين في المجتمع الدولي ، أو تجنيد الجيوش واعداد القوى ... أو ... أو ... مما يمثل مبادئه الأساسية التي يقوم عليها كيانه ذاته في فكرته الكلية التي جاء ليصوغ منها الحياة ... أنه لا يملك شيئا من هذا كله وهو عقيدة مستسرة في الضمير ، أو صلاة خاشعة في المسجد ، أو مناجاة بين العبد ومولاه .

والذين يتحدثون عن الاسلام وانتفاء حاجته الى الحكم ، او عن امكان تحقيقه في الحياة دون تحكيمه في الحياة .. انما يلقون حديثا فيه من التفاهة والقزامة ما لا يرتفع الى شرف المناقشة واحترام الجدل ! انهم لا يدلون بهذا على جهلهم لطبيعة هذا الدين من اساسها ، ولا بعدهم عن الالمام بحقائقه البسيطة التي يلام على جهلها المبتدئون ؛ بل يدلون على جهل بكل مقومات الطبيعة البشرية ، وكل العوامل المؤثرة في تكوين المجتمعات ، وكل الثقافات الضرورية لاستقبال الحياة ، بله الحكم على الحياة !

ولكن القزامة والتفاهة الإفغاشية عند الكثيرين في هذا الجيل ، وسطحية التفكير وضحالة الثقافة ، تقبل مثل هذا الكلام احيانا حتى ليردده وزراء في الحكم ، لا يخجلون ان يطلع الناس في مصر وفي غير مصر على مدى ما يتمتعون به من سداجة وغفلة ، ومن سطحية وبعد عن الثقافة ... وهم الذين يدعون انفسهم او يدموهم الناس « مثقفين » !

في العالم المسيحي الغربي يدخل الفرد الى الكنيسة فيستمع الى المواعظ والتراتيل ، وقد يخشع قلبه ، وهو ينصت الى صوت الواعظ المؤثر ، والى الموسيقى المنبعثة من الجوقة ، والتراتيل الخائسة ، والابخرة الاربعة المطربة ...

ولكنه حين يغادر الكنيسة يجد قانونا آخر يحكم الحياة الواقعة ويصرفها ، ويبجد مجتمعا يقوم على اساس هذا القانون ، الذي لا علاقة بين روحه وروح المسيحية .

وكثيرا ما ذهبت الى هذه الكنائس ، واستمعت الى الوعظ في الكنيسة ، والى الموسيقى والتراتيل والادعية ، وكثيرا ما استمعت الى اذاعة الاباء في محطات الاذاعة في الامبياد المسيحية .. دائما يحاول الاباء ان يعقدوا الصلة بين قلب الفرد وبين الله . ولكن واحدا منهم لم اسمعه يقول : كيف يمكن ان تكون مسيحيا في واقع الحياة اليومية ، ذلك ان المسيحية انما هي مجرد دعوة

للتطهر الروحي ، ولم تتضمن تشريعا للحياة الواقعة ، بل تركت ذلك لقيصر .

وكان من اثر هذا في العالم المسيحي ان اصبحت المسيحية في جانب والحياة الواقعة في جانب ، وعلى توالي الازمان اصبحت المسيحية محصورة داخل الكنيسة ، والحياة من حولها ابعد ما تكون عن روحها السمحة المنظرة . فلما نشطت الكنيسة في السنوات الاخيرة للإتصال بالمجتمع من جديد ، لم يكن همها أن ترفع الناس اليها ، بل كانت طريقها أن تهبط هي الى الناس . واذا قلت تهبط ، فليست اعني انها تتبسط وتواجه الحياة بحلول عملية ، انما اعني انها تملق شهواتهم ورغباتهم ، وتتغاضى عن لذائذهم الهابطة ونزواتهم الجامحة ، لتضمن الا يعيد المجتمع نبذها ، كما نبذها في مطلع النهضة والاحياء .

نحن ببلاهة غبية ، وسطحية نافهة قد حاولنا بالاسلام هذه المحاولة ، لا لأن الاسلام لم يتضمن التشريعات التي تحكم الحياة وتضربها ، بل لأننا بشعور العبيد وعلى طريقة القروء ، قد أردنا ان نجعل مصر قطعة من أوروبا ، ولما كانت أوروبا تحكمها القوانين المدنية لا الدينية ، فقد فعلناها نحن ايضا ! دون فطنة الى ان أوروبا لم يكن لها مفر من ذلك ، لأنها لم تجد في المسيحية تشريعا للحياة ، وانما وجدتها مجرد عقيدة روحية وصلاة !

لقد فطن الاسلام الى ان العقيدة لا يمكن ان تتحقق بذاتها في واقع الحياة ما لم تتمثل في نظام اجتماعي معين ، وتحول الى تشريعات تحكم الحياة ، وتكيف علاقاتها الواقعية المتجددة . ولكننا نحن بحماقة غبية لم نفطن الى هذا الذي فطن اليه الاسلام ، وصاغ نفسه على اساسه : عقيدة تتمثل في شريعة ، وشريعة هي تفسير وتحقيق لهذه العقيدة ، ووحدة شعورية تشريعية ، تتألف منها حياة واقعة ، ممثلة في العقيدة والسلوك ، وفي العبادات والمعاملات ، وفي السرائر والجوارح ، وفي الافراد والجماعات .

لقد سمعنا الأوروبيين يقولون : ان الدين علاقة ما بين الفرد وربه ، وليس له ان يتدخل في الحياة المدنية . . فرددنا كالببغاوات الفارغة الدماغ هذا الذي سمعناه !

نعم ! الدين علاقة ما بين الفرد وربه في المسيحية ، ولاوروبا عذرها في هذا ، لان دينها لم يبين لها كيف يتدخل في الحياة المدنية ، وحين تدخل آباء الكنيسة في تلك الحياة تدخلوا لصالح انفسهم ، وبوحي من هذه المصالح ، لا بوحي من المسيحية التي لم تتضمن شيئا من الحياة المدنية . فلما ثقلت وطأة الكنيسة ورجالها على الناس ، وتحولت الى سلطة دكتاتورية ، تتخذ من الدين ستارا لطمعها الدنيوية . . نفى الناس هذا السلطان عن رقابهم ، ووقفوا الكنيسة ورجالها عند حدهم الذي جعلته لهم الديانة ذاتها ، أي عند امتاب الكنيسة .

فاما الاسلام فقد انشا مجتمعا محكوما بشرائعه ، التي يمكن الرجوع اليها هي ذاتها لوقف كل طغيان لمن قد يسمون انفسهم « رجال الدين » حين يتشبهون برجال الكنيسة ، ويحاولون اكتساب سلطة دينية !

ومع وضوح هذه الحقائق ، وبساطتها ، نجد في جيل الاقزام الذي نعيش فيه من يحاول ان يبدو للناس مثقفا جدا ! فينطق بفصل الدولة عن الدين ! لان الدين يجب ان يتدبر شؤون الروح ، ويدع الحياة للقوانين الارضية !

وفي فترات الانحطاط تبتلو في الشعوب العريقة قزامة عجيبة وضالة . وينفث البغاث الصغير ريشه ويختال . ولكن عهد الاقزام في مصر قصير الاجل مشرف على الزوال !

انني مؤمن كل الايمان بان لا نجاة لهذه الامة ولا حياة الا ان تعود الى عقيدة ضخمة ، تنفض عنها قزامة الجيل وتفاوته ، وتتملا

حياتها حركة وحيوية واقتحاما .

وهذه العقيدة الضخمة اليوم ليست شيئا بالقياس الى
مصر الاسلام .

ان العقيدة الوطنية وحدها لم تعد تكفي ، بدليل انها لا
تستطيع ان تقاوم العقيدة الشيوعية في كثير من اقطار الارض .
ذلك ان فكرة العدالة الاجتماعية بين الافراد في حياة المجتمع ،
اخذت تطفئ بقوة على النمرة الوطنية في اوطان تقسم اهلها الى
عبيد واسياد .

والاسلام هو وحده القادر على تحقيق الفكرتين جميعا ، بلا
تعارض ولا تصادم ولا مغالاة : فكرة الوطنية في الوطن الاسلامي
الاكبر حيثما مد الاسلام ظله . وفكرة العدالة الاجتماعية الكاملة
في هذا الوطن الكبير .

والاسلام لا يحقق هذه العدالة الاجتماعية الكاملة في ذلك
الوطن الكبير للمسلمين من اهل وحدهم ، بل يحققها كذلك لجميع
سكانه على اختلاف الاديان والاجناس واللغات والالوان . . . وتلك
مزيته الانسانية الكبرى التي لا تحققها عقيدة اخرى .

ولكن ينبغي ان تكرر دائما ان هذا كله لا يتحقق بمجرد ان
يذهب الناس الى المساجد ، ويحتفلوا بالمولد النبوي الشريف ،
ويلقوا الخطب في مدح سيد المرسلين ! ولا بان تعسج الارض
بالمجاذيب والبراويش ، يتلون الادعية ، ويقيمون الاذكار ، ويحملون
المسابيح ، ويتمتمون او يهدرون !

ولا يتحقق بان تكون لنا « هيئة كبار علماء » تصدر قرارات
الحرمان ، ثم تعود فتصدر مكسوك الففسران ، لتفسير الظروف
والملايسات ، او تصدر الفتاوى في تخطئة ابي ذر لانه طالب
بالعدالة الاجتماعية للفقراء ، او لترفع العرائض الانشائية ، تتضمن
الوعظ الشريف ، وثناء الاخلاق التي انحلت في هذا الزمان !

أن شيئاً من هذا كله لن يجدي شيئاً ، إنما الذي يجدي وحده أن يحكم الإسلام الحياة ويصرنها . أن تحكم الدولة حكماً إسلامياً . أن تستمد القوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالحكومة وعلاقات الحكومة بهم من الشريعة الإسلامية وليس قانون الأحوال الشخصية وحده بل قانون قانون العقوبات والقانون المدني والتجاري وسائر القوانين والتشريعات التي تكيف صورة المجتمع وتمنحه شكله ونظامه الخاص .

أن دستور الدولة الحاضر ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام . وليس لهذا من معنى إلا أن تستمد القوانين كلها من الشريعة الإسلامية ، والشريعة الإسلامية قادرة على تلبية الحياة المعاصرة ، ونموها وتجديدها . مع الانتفاع بتجاربنا نحن وبتجارب الإنسانية كلها فيما يتفق مع فكرة الإسلام الكلية ومبادئه العليا عن الحياة .

لست أزمع أن الفقه الإسلامي الحاضر قادر اللحظة على الإحاطة بكل مطالب الحياة المعاصرة الجزئية ، فقد وقف نمو هذا الفقه حقبة من الدهر طويلة . ولكن أصول الشريعة الإسلامية بما فيها من مرونة وشمول قادرة على أن تلبي حاجات الحياة — على النحو الذي أوضحته في مشكلاتنا الكبرى — وتبقى صياغة المواد القانونية ، المستمدة من الأصول العامة ، حسب الحاجات المتجددة أبداً (١)

ولقد يخطر لبعضهم أن يقول : وعلام هذا العناء ؟ وما لنا لا ندع هذه الشريعة جملة ، ونستمد تشريعاتنا من تلك التجارب الجاهزة التي انتهت إليها البشرية أخيراً ؟

وهي قولة من استمر الاستعارة الجاهزة حتى فقد كل

(١) قام الأستاذ عبد القادر عودة بجهد ضخم بالغ في هذا المجال في كتابه : « التشريع الجنائي الإسلامي » في مجلدين نشر أولهما والثاني في الطريق .

شعور بشخصيته وبقوميته ، وبتاريخه الحي الذي يعيش في كيانه . وقوله السطحي الذي لا يدرك كيف تتم الاستجابات بين الفرد والبيئة ، وأخيرا فهي قولة الذي لا يعرف من أين تستمد الامم عناصر البقاء والمقاومة في معترك الحياة .

ان الطريق الذي ندمو اليه نحن هو الطريق الذي يضمن لروح هذه الامة ان تستشرف ، وتتطلع الى حياة كريمة مزيرة ، والذي يمكنها ان تحقق للكتلة الاسلامية البروز والتميز بين الكتلتين الشرقية والغربية ، البروز بمجتمع خاص له سماته الواضحة ، وله شخصيته المستقلة . وذو الرصيد الاصيل انما يزيد رصيده وينمو بما يقع له من زيادات وعلاوات . فاما المفلس المستجدي فلن يكون يوما ذا رصيد قائم ، وان ظل حياته يسأل ويستجدي !



لا بد للاسلام ان يحكم ليحقق وجوده ، وليحقق ذلك المجتمع الكامل العادل الذي رسمنا الكثير من خطوطه . وما كان شيء من ذلك ليتحقق والاسلام بعيد من الحكم في الحياة .

ولا بد للاسلام ان يحكم لبقدم للانسانية مجتمعا من طراز آخر ، قد نجد فيه الانسانية حطما الذي تحاوله الشيوعية ، ولكنها تطمس بوقوفها عند حدود الطعام والشراب ، وتحاوله الاشتراكية ولكن طبيعتها المادية تحرمه الروح والطلاقة ، والذي حاولته المسيحية ولكنها لم تنظم له الشرائع ولم تضع له القوانين .

ولا بد للاسلام ان يحكم لانه العقيدة الوحيدة الايجابية الانشائية التي تصوغ من المسيحية والشيوعية معا مزيجا كاملا ، يتضمن اهدافهما جميعا ، ويريد عليهما التوازن والتناسق والاعتدال .

والعالم لا يستغني عن عقيدة ايجابية . والمسيحية قد ادت دورها ، ولم تعد عاملا ايجابيا في واقع البشرية ، فلقد اصبحت الجماهير تقود الكنيسة ، والكنيسة تتبعها بلا توقف ولا تحرج ولا مدافعة حتى من اقدس اقداسها واشرف اهدافها في القلب والضمير !

واخيرا يجب ان يحكم الاسلام ، لان الاسلام كان اعرف بطبيعته وطبيعة الحياة وهو يقرر : ان لا اسلام بلا حكم ، ولا مسلمين بلا اسلام : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » . صدق الله العظيم .

شبهات حول حكم الإسلام

تفهم على الإسلام ، وعلى حكم الإسلام ، شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل ، بعض هذه الشبهات ناشئة من الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين ؛ ذلك الجهل الذي لا يريد أصحابه أن يعترفوا بأنه نقص في ثقافتهم . على الأقل بوصفهم ناسا يعيشون في دولة دينها الرسمي هو الإسلام . والإسلام عقيدة الاغلبية من سكانها ، فهو الآن عنصر ضروري لدراسة المجتمع فيها ، ولكل دراسة عقلية أو لنية في محيطها . وبدلاً من أن يعتدروا من هذا النقص المعيب في ثقافتهم ، فانهم يتخلدون منه فضيلة ، أو يستشهدون به على أنهم « مثقفون » !

وبعض هذه الشبهات ناشئة عن التباس فكرة الدين ذاته ، بمن يسمون في هذا العصر « رجال الدين » . وهو التباس مؤذ للإسلام ولصورته في نفوس الناس ، فهؤلاء « الرجال الدين » أبعد خلق الله عن أن يمثلوا فكرته ، ويرسموا صورته لا بثقافتهم ، ولا بسلوكهم ، ولا حتى بزيهم وهيتهم ، ولكن الجهل بحقيقة هذا الدين ، والثقافة المدرسية الباقية من عهد الاحتلال ، والتي ما يزال يشرف عليها الرجال الذين صنعهم الاحتلال ، والادوات التنفيذية التي صاغها بيده ، لتسد مسده بعد رحيله . هذا الجهل الناشئ من تلك الثقافة . . لا يسدع للناس صورة عن الإسلام يرونها إلا في هؤلاء الذين يعرفونهم « رجال دين » وهمي أسوأ صورة ممكنة للإسلام ، ولاي دين من الأديان !

وبعض هذه الشبهات ناشئة من التباس صورة حكم الإسلام ببعض أنواع الحكومات التي تسمى نفسها « حكومات اسلامية » .

وتمثيل هذه الحكومات لحكم الاسلام كتمثيل من يسمونهم « رجال الدين » لفكرة الاسلام ! كلاهما تمثيل مزور كاذب مشوه ، بل تمثيل النقيض للنقيض . ولكن الجهل بحقيقة فكرة الاسلام عن الحكم ، حتى بين « المثقفين ! » لا يدع صورة للحكم الاسلامي اخرى ، غير هذه الصورة المزورة الشائنة الكريهة .

وبعض هذه الشبهات ناشئة من التباس صورة الحاكم الاسلامي ببعض الشخصيات التاريخية التي ادعت انها تحكم باسم الاسلام ، وهي ابعد ما تكون عن روح الاسلام وقانونه . والجهل بكل ما هو اسلامي بحكم الثقافة الاستعمارية التي يتلقاها الجيل في المدرسة وفي الصحيفة وفي المجتمع يتيح لمثل هذا الالتباس ان يفيم على الافكار والمشار ، ويفعل فعله في تنفير الناس من هذا اللون من الحكم البغيض !

وكل هذه الشبهات كان يكفي في جلائها مجرد المعرفة الصحيحة للحقائق التاريخية والاجتماعية للاسلام . اي ان يتلقى الجيل ثقافة حقيقية لائقة . اجل . لائقة ! فانه لا يليق بمثقف ان يجهل كل شيء من عنصر اساسي مؤثر في مجتمعه وفي عقلية شعبه ، وفنه وادبه ، ونظراته الى الكون والحياة . وليست هذه الثقافة مسيرة - كما يتصور الكثيرون - حين يتصورون الكتب الصفراء ، وتمثل لهم صورة الدراسة الازهرية بما فيها من الغار ومعميات ! كلا ! ان هذا ليس هو الثقافة الاسلامية المطلوبة للجيل ، فالاسلام يسر لا عسر ، وهو عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ، ونظام اجتماعي متوازن متناسق ، لا اقطاع فيه ولا ترف ولا حرمان ، ونظام للحكم ليس فيه حقوق الهية ، ولا دم ازرق ، ولا استبداد ولا ظفیان .

ومع ان جهل الجيل - والمثقفين منه بخاصة - لا يصلح علرا لاصحابه ، فاننا نؤثر هنا ان نناقش تلك الشبهات التي تفيم في نفوس الناس على حكم الاسلام . الناس الذين نعرف حسن نياتهم ، وبراءتهم من الدوافع الخبيثة . وهؤلاء سنناقش شبهاتهم

البريئة هنا ، وتمسوراتهم الناشئة من الجهل وحده ، لا عن الغرض
والهوى . فاما المفروضون الخبيثاء فموجدنا معهم فصل آخر حين
نواجه العداوات حول حكم الاسلام !

بدائية الحكم

يخلط الكثيرون بين النشأة التاريخية للاسلام ، وفكرة
الاسلام المجردة ، القابلة للتوسع والشمول ، في التفريمات
والتطبيقات .

هؤلاء حين يسمعون كلمة « الحكم الاسلامي » تقفز الى
خيالهم صور الخيام الساذجة في الصحراء ، وصور الاعراب الرحل
على الابل ، او العرب المقيمين في الاكواخ ، ويتصورون بساذجة ان
معنى الحكم الاسلامي هو العودة الى تلك الحياة البسيطة
الساذجة ، الخاوية من كل اسباب الحضارة الانسانية التي
استحدثت في خلال الف واربعمئة عام !

واذن فلا عمارة ولا مدنية ، ولا صناعة ولا تجارة ، ولا علم
ولا فن ، حتى الشعر ذلك الفن العربي الاصيل ، يخيل لهذا الفريق
من الناس ان حكم الاسلام سيختتم على افواه قائله ومنشديه ، ما
لم يحولوه الى مواظف دينية والفيات نحوية !

وليس حكم الاسلام وحده هو الذي يثير هذه الصورة الماحلة
في خيالهم ، بل ان بعضهم ليثير هذه الصورة في حسه مجرد الربط
بين الحكم وعنصر الاخلاق ! ولست انسى ان احد « الدكايرة » في
التربية العائدين من امريكا كان يتحدث معي عن المجتمع الامريكي ،
فقلت : ان لهذا المجتمع مزاياه ، ولكن الذي اكره عليه هو انه ينفي
العنصر الاخلاقي من حسابه جملة ، ويعده منصرفا دخيلا على
الحياة . فانتفض في حماسة واستاذية يقول : « اذا كنا سنتحدث
عن الاخلاق ، اذن فلنرجع الى عيشة الخيام » .

وبمثل هذه الروح سيتولى ذلك الدكتور العظيم اعداد جيل

من المعلمين في معهد التربية ، يتولون بدورهم اعداد اجيال من
ابنائنا ، الذين نسلهم اليهم في ثقة واطمئنان !

ان هؤلاء جميعا يخلطون كما قلت بين النشأة التاريخية
للإسلام ، وبين النظام الاسلامي ذاته كمجرد نظام .

ان النظام الاسلامي ليس معناه فقط صورة ذلك المجتمع
الاسلامي في نشأته ، بل معناه كل صورة اجتماعية خاضعة لفكرة
الإسلام الكلية من الحياة .

والنظام الاسلامي يتسع لعشرات من الصور ، تتفق مع النمو
الطبيعي للمجتمع ، ومع حاجات العصر المتجددة ، ما دامت فكرة
الإسلام الكلية تسيطر على هذه الصور في محيطها الخارجي
الفسيح .

صورة من هذه الصور . صورة تشمل كل حضارة البشرية
النظيفة وكل تجاربها العلمية الواقعية ، وتجاربها الفكرية
والشعورية ، اللاتقة بمالم يصدر عن الله . . هي التي تريد تحقيقها
عندما نقول : اننا نريد استئناف حياة اسلامية ، محكومة بالقوانين
الاسلامية (1) .

ان الشظف والبسلاوة ليسا اصلا من اصول الاسلام كما
يعتقد بعض السذج الفضلاء ! انما كان الشظف ظاهرة اقتصادية
في مرحلة خاصة ، وكان حث الناس على الصبر عليها ضرورة من
ضرورات الواقع ، كيلا تنهافت نفوسهم ، وتنهار قواهم ، وتخلد لهم
طاقاتهم على المقاومة والكفاح ، والدعوة في حاجة الى المقاومة
والكفاح . فاما بعد ذلك فكل فرد مطالب بان يستمتع في الحدود
التي لا تصل الى مستوى الترف ، ولا تدع الانسان عبدا لشهواته
ولذائده ، كذلك الفريق التافه الذي يسمى في عصرنا هذا « اولاد

(1) « نهر مجتمع اسلامي » بحث يتضمن صورة شاملة للمقومات الاصلية
لهذا المجتمع . ارجو ان ينشر قريبا بعون الله .

الدوات « !

كذلك يخلط الكثيرون بين الشريعة الإسلامية في ذاتها ، وبين
النشأة التاريخية للفقهاء الإسلامي ، فيحسبون أن معنى استحياء
القوانين من الشريعة ، هو الوقوف عند الأحكام الفقهية التي وردت
فيها - وهي بطبيعة الحال لا تكفي لمواجهة حاجات المجتمع كلها -
على توالي الزمان .

إنه خلط مضحك . فهذه الشريعة بما فيها من مرونة وشمول ،
استجابت لمطالب حياة البادية ، كما استجابت فيما بعد لحياة
الدولة الناشئة في عهد محمد ، المتوسعة في عهد عمر . ثم ظلت
تستجيب لحياة الحضارة فيما بعد ، ما بقيت في الأمة الإسلامية
حياة . ثم توقف نمو الفقه حينما توقفت حيوية الأمة الإسلامية
ذاتها . فإذا دبت الحياة في هذه الأمة فالشريعة الإسلامية حاضرة ،
تلبى حاجاتها المتجددة ، ومطالبها المتغيرة ، بما فيها من سعة
ومرونة وشمول .

وإنه لمن سوء الحظ أن تكون جمهرة المشتغلين بالتشريع في
مصر اليوم قد تلقت تعليمها كله في ظل عقلية تشريعية أجنبية ،
وأنها لا تعرف من الشريعة الإسلامية إلا اليسير الزهيد . فمن
الصعب أن تتصور هذه الجمهرة ، أن الشريعة الإسلامية قسادة
على أن تمد المشرع الحديث ، بكل حاجات الحياة الراهنة
المتجددة .

إن بعض هذه الجمهرة ليسخر من هذه الفكرة ، وهو أحق
بالسخرية . لأنه يسخر سخرية الجهل والكسل ، وسخرية الفتنة
بحضارة لم يشترك في صنعها ، وإنما هو عالة عليها !

ولو كانت لنا عقلية تشريعية يقظة ، لأدركنا من تطبيق
القانون الفرنسي سبعين عاما ، ذلك التصادم الذي تحدثنا عنه بين
روح القانون وروح الجماهير ، وذلك التناحر بين طبيعته وطبيعة
الشعب الذي يطبق عليه ، ومدى الفشل في اقناع هذا الشعب

بعدالة هذه القوانين التي تسن له .

ولو اقتنع الشعب بعدالة القانون ، ولو اتفقت روحه مع روحه ، ما عاشت تلك الظاهرة التي أبرزناها . ظاهرة تكتل الجماهير في صف الخارجين على القانون ، واعتبارهم أبطالاً يستحقون الإعجاب والحماية والمساعدة !

ان استيحاء الشريعة الإسلامية سيحقق استجابة الناس للقانون أولاً : لأنه سيمنحهم عدالة اجتماعية كاملة ، ويقف في سبيل الطغاة والمستغلين ، وينشئ مجتمعا سليما من الآفات التي تفسد فطرة الناس ، وتحرمهم الثقة ، وتشيع فيهم القلق والسخط والتمرد . وثانياً : لأنه سيحصل في نفوسهم بمقيدة قوية ، وتتفق روحه مع أرواحهم في الأعماق . وسيكون التعاون بين الجمهور والسلطات مستمداً من ان هذا التعاون لا يرضي السلطات الأرضية وحدها ، ولكنه يرضي كذلك سلطان السماء ، ويحقق عدالة السماء .

ان القانون دائما يتضمن روادع وزواجر ، ويحول بين الناس وبين الكثير من شهواتهم المستحبة ، المرتكزة الى ميولهم الفطرية ، فيجب لكي يطعموه ويحترموا من قلوبهم ، ان يستند الى قوة أعمق في كياناتهم . وقوة العقيدة كفيلا بأن تسنده وتؤيده ، حتى وهو يمنع عن الأفراد ما يلد لهم وما يطيب !

على ان الاسلام بما فيه من مراعاة لحاجات الفرد والجماعة ، ومطالب الحياة المتجددة ، والمجتمعات المتحضرة ، يملك ان يلبي هذه الحاجات والمطالب في يسر ومرونة وسهولة .

ولكن ينبغي ان يكون واضحا اننا اذ نقول : ان الاسلام يملك ان يساير المجتمع المتحضر المتجدد . . لا نعني اخضاع الاسلام ومبادئه ونظمه لشهوات الجماهير العارضة ، ونزواتها الطارئة ، تملقا للجماهير ، باسم التحضر والتجديد ، على طريقة من يسمونهم « المسلمين المصريين » او الاقزام الذين يدعونهم في جيل

الاقزام « متحررين » !

لقد فهمت الكنيسة في أمريكا ما يفهمه أولئك المصريون والمتحررون ، فاستحالت من هيكل عبادة الى ساحة رقص ، ومن قدس تظهر الى ساحة لذة .. ولست انسى ذلك « الاب » الذي انتهى من الصلاة والترنيل ، ليقود « أبناءه وبناته » الى ساحة الرقص الملحقة بالكنيسة ، ووقف ينظر يرصا اليهم واليهن ازواجا ازواجا متلاصقة تدور في الساحة على انغام الموسيقى ، في ظل الانوار الحمر والصففر والزرق التي تلقى ظلال الرومانسية العنيفة، وتهيج الدم في مروق الشباب ! ثم تقدم الى « الجراموفون » ليختار « اسطوانات » يرقص عليها أبناءه وبناته تحت سمعه وبصره ، فاختار قطعة غزل جنسية صارخة ، تمثل حوارا بين شاب وفتاة ، عائدتين من السينما بعد منتصف الليل ، وهو يمسك بها في حجرته الدافئة ، ولا يطلقها لتعود الى اهلها لان الليلة باردة، وفي نهاية كل مقطع تتردد تلك الجملة : But baby, it is cold outside.

« يا صغيرتي انها باردة في الخارج ! »

كلا ! نحن لا نعني ذلك ابدا ، انما نعني صورة من صور المجتمع تحقق مطالب العصر وتساير نموه ، وهي في ذات الوقت تخضع كل الخضوع لروح الاسلام النظيفه ، ومبادئه القوية ، التي تلبى ارقى صور الحضارة الصحيحة السليمة ، حضارة الانسان ، لا اباحية الحيوان ..

حكم المشايخ والدراويش

هناك آخرون يتصورون ان حكم الاسلام ، معناه حكم المشايخ والدراويش ! من اين جاءوا بهذا التصور ! من الثقافة السطحية الناقصة ، ومن ملابس الواقع في هذا الجيل .. فاما الاسلام الحقيقي الصحيح ، فلا يعرف هذا الوضع ، لا في اصوله النظرية ، ولا في واقعه التاريخي .

حتى تلك الازياء الخاصة للمشايخ والدراويش .. انها ليست شيئا في الدين ، فليس هنالك زي اسلامي وزى غير اسلامي ، والاسلام لم يعين للناس لباسا ، فاللباس مسألة اقلعية ، ومجرد عادة تاريخية . ومحمد بن عبد الله لم يلبس جبة وقفطانا ، او قفطانا و « كاكولة » وانما لبس ثيابه العربية التي كان يلبسها قومه وجيله . كذلك لبس المسلمون في فارس ثيابهم الفارسية ، والمسلمون في مصر ثيابهم المصرية .

وعلام يتميز بعض المسلمين من بعض بلباس ؟ وليس في الاسلام رجال دين ، ولا هيئة « اكثروس » لا تقام الطقوس الدينية الا بوساطتها . والتفقه في الدين اجتهاد كالتفقه في الطب والهندسة والتجارة وسائر المعارف الانسانية الاخرى .

نعم قد توجد مناصب رسمية كمناصب القضاء ، ولكن الاسلام لا يعرف ان هناك قاضيا للاحوال الشخصية يحكم بالقانون الاسلامي ، وقاضيا للعقوبات والمدنيات يحكم بقانون غيره . الاسلام لا يعرف الا شريعة واحدة تنظم العقوبات والشؤون المدنية، كما تنظم احوال الزواج والطلاق والميراث ، وتخضع الجميع لفكرة كلية واحدة تصدر عنها هذه التفريعات في شتى نواحي النشاط الانساني . والذي يتولى القضاء في هذه النواحي جميعا او في ناحية واحدة منها — حسب تخصيص الدولة له — انما يتولاه باسم تفقهه في الشريعة كلها او بعضها . كما يتولى الطبيب عمله لتعلمه الطب العام او التخصص في فرع منه ، وكما يتولى المهندس عمله لتخصصه في الهندسة او فرع منها .. والقاضي ليس رجل دين في الاسلام . انما هو مسلم خلق فرعا من فروع المعرفة ، فاستند اليه العمل الذي يحسنه . وكل امرئ ما يحسنه في الحياة .

والخدمة الدينية — كمجرد امامة الصلاة — ليست عملا ياجر الاسلام من يقوم به من بيت مال المسلمين ا ما لم تكن لهذا الامام

وظيفة اخرى يؤديها . كإلقاء دروس في المسجد ، او القيام بإدارته من الناحية النظامية لا التعبدية . فإمامة المصلين ليست وقفاً على شخص من المصلين . انما يؤمهم افضل الموجودين ، وتصح صلاتهم جماعة او فرادى الا في صلاة الجمعة خاصة ، ومن هذا البيان يتضح ان ليس في الاسلام « رجال دين » يخشى ان يتولوا الحكم اذا صار الحكم الى الاسلام .

ذلك من الوجهة النظرية ، فاما من وجهة الواقع التاريخي في الاسلام فان حلق الفقه الاسلامي لم يكن بذاته مرشحاً للحكم ، وتولي الاعمال في القيادة والادارة وما اليها ، حتى في ازهى عصور الحكم الاسلامي الكامل . انما كان الحلق في كل حرفة هو المؤهل لها دون نظر الى درجة الفقه الديني لصاحبها ، ولا حتى الميزة الكبرى التي يعتبرها الاسلام اساساً للتفاضل بين الناس ، وهي التقوى .

كتب ابو بكر اعرف اصحاب رسول الله بروح الاسلام ، الى ابي عبيدة بن الجراح ، الذي كان يلقيه رسول الله « امين الامة » يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن ابي قحافة الى ابي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . اما بعد ، فقد وليت خالداً قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له واطع ، فاني وليته عليك وانا اعلم انك خير منه وافضل ديناً . ولكن ظننت ان له فطنة في الحرب ليست لك . اراد الله بنا وبك سبيل الرشاد . »

فالذين يخشون — لو حكم الاسلام — ان يبصروا فيروا على رأس الجيش مثلاً في المعركة ، او في مصلحة الكيمياء او الطب الشرعي ، او في وزارة الاشغال او المالية ، شيخاً عظمياً ، او درويشاً معصوماً لمجرد انه قرا كتب الفقه والسنة ، او حفظ المتن والحواشي والشروح ، او اتقن التراويل الدينية ودلائل الخيرات . .

اولئك فليطمئنوا . فواقع الاسلام التاريخي ، كاصوله النظرية ، لا يعترف الا بالكفاية الخاصة في العمل الخاص . ولكل وجهة هو موليا .

ان حكم الاسلام لا يتحقق لان في الحكم طائفة دينية - وليس في الاسلام كما ترى طائفة دينية - انما يتحقق لان القانون الاسلامي ينفلد ، ولان فكرة الاسلام تحكم ، ولان مبادئه ونظمه تحدد نوع الحكومة ، وشكل المجتمع . وهذا كل ما هناك .

فاما نوع الحكم الذي يحتمه الاسلام فهو الحكم الشورى . والقرآن ينص على هذا نصا : « وشاورهم في الامر » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لو كنت مؤمرا احدا دون مشورة المؤمنين لامرت ابن ام عبد » فيقرر مبدا الشورى في الحكم وفي الادارة تقريرا صريحا . لانه وهو النبي لا يملك ان يؤمر احدا دون مشورة المؤمنين .

فاما طريقة الشورى فلم يحددها الاسلام تحديدا معينسا ، لانها مسألة نظامية ترجع الى حاجات كل عصر ، ووسائله وامكانياته في تحقيق المبدأ ، في كل مكان وفي كل زمان .

فحين كان اهل الراي الذي يمثل الشعب كله مجتمعين في المدينة حول النبي - وهم الصحابة - كان النبي يستشيرهم - فيما لا وحي فيه ولا نص بطبيعة الحال - ويترك لهم حرية القول والتصرف في شؤونهم الدنيوية ، لانهم اخبر بها . ومعنى دنيوية هنا انها لا تتعلق بحكم شرعي او اجتماعي ، وانما تمثل الخبرات العملية ، كفنون القتال ، وزراعة الارض ، وحماية الثمار ، وما اليها . وهي ما نستطيع ان نسميه في عصرنا الحاضر الشؤون العلمية البحتة والشؤون العملية التطبيقية .

فاما الشؤون التشريعية الخاصة بالانسان : روحه وعقله ، وعلاقاته بالناس وعلاقات الناس به ، والحدود بين حقه وواجبه . الخ ، فنلك مسائل يرجع فيها الى النصوص والقياس ، اي الى

القوانين الإسلامية المحددة ، او المبادئ العامة والفكرة الكلية .
وما يتفق معها فهو منها .

وقد ظلت الشورى مقصورة على المدينة ، ما ظلت المدينة
تمثل اهل الرأي ، فلما تغير الوضع شيئا توسع الخليفة الاول ابو
بكر فاستشار اهل مكة في حرب الشام . اذ كانت المسألة عملية
حربية خارج الحدود العربية كلها ، تعود آثارها على من في مكة
كما تعود على من في المدينة .

فاذا انتهينا في هذا العصر الى ان يصبح رأي الجماهير لا
يمثله من يقيمون في القاهرة وحدها ، ولا الاسكندرية ، ولا اية
مدينة من المدن ، فالطريقة اذن ان نستشير الجميع بالطريقة التي
تكفل الحصول على آراء الجميع . . وهي مسألة نظامية تتعلق
بالتنفيذ . اما المبدأ فهو مقرر في الاسلام تقريرا اصيلا واضحا ،
كل ما يحتمه الاسلام هو ازالة القيود التي تجعل الانتخاب غير
ممثل لحقيقة الرأي في الامة . فلا يكون الناخب تحت رحمة
صاحب الارض او صاحب العمل او صاحب السلطان ، كما هو
واقع الآن .

والحاكم في الاسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو ارادة
المحكومين . فالبيعة الاختيارية هي الطريق الوحيد لتلقي الحكم .
والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ . فخلافة ابي بكر وعمر
وعثمان وعلي قاست على اساس الاختيار المطلق . ولا يتعارض هذا
مع وصية عمر ان تكون في واحد من ستة فقد كانت هذه نصيحة
للمسلمين ، ولم تكن امرا واجب الطاعة . ولو اختار المسلمون
واحدا من غير الستة لاختاروا . ولكن هؤلاء كانوا بالاجماع اصلح
الجميع ، فاختاروا واحدا منهم برضاهم واذنهم ، لا بأمر عمر
ووصايته .

ولما عدل بنو أمية عن هذه القاعدة الإسلامية الأساسية في
الحكم ، رده اليها الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز .

رده الى الامة التي يجب ان تختار حكامها حرة طائفة مختارة .

سعد الخير فقال :

« ايها الناس : اني قد ابتليت بهذا الامر من غير راي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي . فاختراروا لانفسكم » .

فقال الناس : قد اخترناك يا امير المؤمنين ، ورضيناك . فل الامر باليمن والبركة .

وبذلك رد الامر الى نصابه في ولاية الامر . فلا ولاية بغير شوري ورضى وقبول .

والحاكم الاسلامي يتلقى طاعته بعد توليه من قيامه على تنفيذ الشريعة الاسلامية ، لا من اي اعتبار آخر . وذلك عهده مع الحكوميين . فاذا لم ينفذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم . يقول صاحب هذا الدين : « اسمعوا واطيعوا » ، وان استعمل عليكم عبد حبشي كان راسه زبيبة — ما اقام فيكم كتاب الله تعالى « وواضح في هذا الحديث توقيت السمع والطاعة باقامة كتاب الله تعالى ، فليست هي الطاعة المطلقة لارادة الحاكم ، وليست هي الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

بهذا وحده يقوم الحكم الاسلامي ، لا بوجود طائفة معينة في الحكم من المشايخ والندراويش كما يتصور الكثيرون .

ذلك كذلك من ناحية الاسس الدينية . . ثم احب بعدها ان اطمئن الخائفين من حكم الاسلام ان يجيئهم بالمهاويل والندراويش في النواوين ! احب ان اطمئنهم الى ان نوصا من انواع الحكم لن يطارد هؤلاء كما يطاردون الاسلام !

ان حكم الاسلام بعد هذه الطوائف — في اوضاعها الحالية — متباعدة متعطللة ، لا تنتج شيئا وهي قادرة على الانتاج . فسيجند هذه المجموع للعمل المنتج ، لتاتي الامة بشيء يعينها على الحياة .

ان حكم الاسلام لن يدع الدراويش يتفروشون ، ولا مشايخ الطرق يعيشون على الندور .. ان الاسلام يطلب الى كل فرد ان يعمل عملا لياجره عليه اجرا . فلا اجر بلا جهد ، ولا جزاء بلا عمل . والصلوات والصدقات مباداة شخصية وليست عملا اجتماعيا ، اما اقامة الازكار وتلاوة الاوراد ، فتلك اشياء تعرفها عصور التبطل ، ولا تعرفها عصور الحياة والنشاط .

ان العمود الاقطامية هي التي ترزق المشايخ المتبطلين ، والدراويش المهولين ، وتخلع عليهم وتعرف بوجودهم .. لان هذه كلها اجهزة لتخدير الجماهير عما هي فيه من حرمان وشقاء . فاما حكم الاسلام الذي يكافح الاقطاع ، ويرد عن الناس الاستغلال ، فليس في حاجة الى هذه الاجهزة . فسيوجه هذه الجموع المتعطلة المتبطلات للعمل ، وسيهيئ لها مرافق العمل ، لانه سيعمل للجميع ، وسيأخذ من القادر للماجز ، وسيجمع من الضرائب وغير الضرائب ما يحتاج اليه المجتمع بلا تخرج من مس الاغنياء الا بقفاز الحرير ، وسينفق ما يجمعه لمصلحة المجتمع كله لا لحساب المحظوظين دون المنبوذين .

ومع ذلك لن يكون المشايخ المتعطلون ، والدراويش المتبطلون ، هم سادة هذه ، بل سيكونون طريديه ، ان لم يغيثوا ما بأنفسهم ، ويبدلوا وسائل كسبهم ، ويعملوا مع العاملين في حقل الانتاج الثمر ، حقل الحياة .

طفيان الحكم

ويجزع الكثيرون من المفكرين ورجال الفنون من حكم الاسلام ان ينصب لهم المشائق او يحرقهم بالنار او يلقي بهم في ظلمات السجون !

لماذا ؟ لان الحكومة الدينية من طبيعتها الاستبداد والظلم ، وخلق الحريات وكنم الانفاس ، وضيق الافق وجمود التفكير .. !

ومن اين جاءت هذه الصورة البائسة النكدة لحكم الاسلام
وحكومة الاسلام ايها المفكرون المثقفون ؟ انها جاءت من محاكم
التفتيش في عصور الظلمات ، تلك التي حرقت العلماء ، وقتلتهم
بالخوازيق والقت بهم الى الحيات والثعابين . كما جاءت من
الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين .

ولكن واحدة من هذه الحكومات ليست من الاسلام في شيء .
وهي لا تعتمد على الاسلام ، انما تعتمد على الجهل الفاسي ،
والانحطاط العقلي ، والتأخر الفكري ، في البلاد التي قامت بها في
القديم ، او الحديث .

اعط هذه الشعوب الخاضعة للاستبداد علما ورقيا ونورا ،
ومعرفة بالدين . . تسقط عنها هذه الفشاوة ، وتدرك ان الاسلام
في صفها على الحاكمين المستبدين ، وليس في صف هؤلاء الحاكمين .
اذا ادمى الحاكم المستبد انه يستبد باسم الدين كان ذلك
تهمة لهذا النوع من الحكم يوجب اقصاءه عن الحياة ؟ اذن فما
الراي في الحكم الديمقراطي الذي تحكم اليوم باسمه مصر والعراق
والاردن ، وكلها تحكم — والحمد لله — حكما ديمقراطيا دستوريا
برلمانيا على آخر طراز في الدساتير ؟

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ وجهاز الدولة كله يعمل
لحساب الرأسمالية ، وهذه الملايين جائعة عارية مريضة مستغلة ،
ولا حامي لها ولا نصير ؟

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ و «نفر البوليس» يملك
ان يتهم أي فرد في عرض الطريق انه ارتكب جريمة ما ، ثم يقبض
عليه ويصفعه ويركله ويشتمه ، ويجزره في الوحل اذا تابى عليه ،
حتى يذهب به الى قسم البوليس ، ليحرر له محضرا . وكل ذلك
قبل ان يعرض على النيابة ، وقبل ان يقدم الى القضاء ، وقبل ان
يتقرر اذا كان مجرما او بريئا من المحاكمة بعد التحقيق ؟

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التي يقع فيها ما

يرويه رجل كالأستاذ المجاهد محمد علي الطاهر في كتابه الجامع
« معتقل هالكستب » يقول :

« وقد بلغ الضرر بوالدة « علي عمار » الطالب بكلية الحقوق
بجامعة فاروق الاول احد المعتقلين وشقيقاته البنات أن اختبأن
تحت السراير هربا من نيران البنادق السريعة الطلقات فقلبت
السراير وصرخ قائد القوات فيهن فانهقدت الستهن .

« ودام البحث ثلاث ساعات مبثت فيها الايدي بكل مقدس
وعزير كخلع البلاط وكسر الدواليب وتمزيق المراتب والافطيسة ،
ويتحول المنزل بهمة رجال البوليس السياسي الى نخالة امام اعين
الاطفال والنساء والشيوخ .

« ويساق رجال الاسرة باكملها الى المعتقل ضربا بالعصي
والسياط في جميع اجزاء الجسم ، من باب المنزل الى باب المعتقل .

« ومادت النساء الى الام المشدوعة المتطلعة الى وليدها وابيه
واشقاؤه وهم يجلفون امامها فوجدن المسكينة قد اصببت بالشلل
لا تتكلم ، وما زالت حتى الان .

« وقد البت الطبيب الشرعي في تقريره الذي قدمه الى
القضاء العادل ان علي عمار الطالب بكلية الحقوق بجامعة فاروق
والمتهم في الجناية العسكرية قد نرمت اظافره » ا

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التي يقف متهم فيها
امام المحكمة يروي ما نشرته احدى الصحف اليومية الكبرى في
مصر على النحو التالي :

« لم جيء بعبد الفتاح ثروت وهو المتهم الثالث في قضية
الامتداء على الأستاذ حامد جودة واجلسته المحكمة على مقعد .

« واجاب بناء على مناقشة الاستاد حسن العشماوي بانه لم
يعترف باي شيء في التحقيق ، وان التعذيب جملة فاقد الشعور .

« وروى بصوت مرتعش ضعيف صئوف التعذيب فقال : ان اللواء طلعت بك هده بالتشريح اذا لم يعترف ، قائلا : ان البلد في احكام عسكرية .

واستطرد يقول : واخذوني الى غرفة مع الضابطيين العشري وفاروق كمال ، وجردوني من ملابسي ونزلوا في ضرب من تسعة مساء الى اربعة صباحا .

« ولقد قسموا انفسهم اربع مجموعات كل مجموعة من ١٢ عسكريا وضابطا : ووضعوا رجلي في الفلكة واستمر الضرب حتى ان الفلكة انكسرت .

« ثم استعملوا كراييج الهجانة . ولما افقت من اغمائي قال لي طلعت بك : هذه هي الجولة الاولى والبقية تأتي .

« واخذوني الى ابراهيم عبد الهادي باشا فقال لي : انا مندي امر اني اموتك . ثم امر بموالة تعديبي .

« وكان التعذيب على اربع درجات بالضرب بالعصي والكراييج ثم الكي بالنيران . واحضروا سيخ حديد محمي ، ولكن الضابط محمود طلعت طلب من الضباط ان يكفوا عني قائلا : ده صاحبي وسيعترف بكل شيء .

« ثم نمت على الاسفلت فكانوا يطرقون الباب حتى يهرب النوم من عيني ، وما كانوا في حاجة الى ذلك لانني لم اكن استطيع الرقاد على اي جزء من جسمي المشوي كله .

« ثم طالبوني بالامتراف وهددوني ان لم افعل ان يعتدوا علي اعتداء منكرا ، وفعلا تقدم واحد يريد الاعتداء علي ، فقلت له : انا اعرف انني لا استطيع مقاومتك وانت يمكنك ان تفعل معي هذه الجريمة ، ويمكنك ان تنجو من عقاب القانون ، ولكنني اريد ان اقول لك قبل ان تبدا : ان الله لن يترك هذه الجريمة بلا حساب . فابتعد هني .

« وظل تعذيبى . وتلفت اعصابى . . وكنت لما اذهب الى اسماعيل عوض بك واشكو له يضرب الجرس ويأتى الحرس فيقول لهم : هاتوه لي اخرس خالص !

« وجاءني ابراهيم عبد الهادي باشا { مرات وقال لي انا ابهدلك وابهدل اهلك وانا الحاكم العسكري .

« كما جاء النائب العام محمود منصور باشا فلما تقدمت له شاكيا قال انا عارف كل حاجة . وتركني .

« ان من الغريب حقا انني حينما حضرت اليوم لاداء الشهادة وجدت بعض رجال البوليس معهودا اليهم المحافظة على الامن . وكنت اعتقد انهم الان امام المحكمة لماعتبتهم على ما ارتكبوه من آثام .

« الرئيس : هل طلبوا منك اقوالا معينة ؟

« - نعم . ان اقول : انني اعرف مالك وماطف وانني مشترك في الاعتداء على حامد جوده .

« وما كاد المتهم ينتهي من هذه العبارة حتى ارتجف بدنه وحملق في الهواء واصيب بنوبة عصبية اغمائية . وجعل يرسل شهيقا عصبيا مؤلما ابكى معظم الحاضرين في القاعة .

« وبادر رجال البوليس برش الماء على وجهه كما خف اليه طبيب من الموجودين وحملوه الى الخارج .

« وطلب الاستاذ مختار عبد العليم اثبات ذلك في محضر الجلسة فوافقت المحكمة ، واضاف الرئيس ان يثبت ايضا ان النوبة طالت مدة طويلة « !

فاذا كان هذا كله ، وكثير غيره مما ترويه قصة كل متهم سياسي في تاريخ مصر الحديث قد وقع ، فهل الديمقراطية الدستورية البرلمانية هي التي انتجته ، وهي المسؤولة منه ، وهي

التي يجب ان تقصى من الحكم ، لانه في ظلها ترتكب هذه المنكرات، كما يقال : انها ارتكبت وترتكب في العصور المظلمة وفي بعض البلاد المعاصرة باسم الاسلام ؟

ان المرجع في الحكم على نظام ما يجب ان يكون هو قوامه و اصوله . فاما حين تخالف هذه القواعد والاصول ، بسبب الجهل او الانحطاط ، او اية عوامل اخرى ، فالسدي يجب ان يقوله المخلصون للحق في هذه الحالة : ان اصول هذا الحكم ليست مرجية . وانه يجب ان يرجع الى هذه الاصول والدعوة الى هذه الرجعة تكون اذن قوية لانها ترتكن الى اصل معترف به ، ولكنه مهمل في التطبيق .

لقد كان اقضاء الاسلام عن الحكم يكون مقبولا ، لو كان الخائفون من الاستبداد في ظله ، او المفرضون الذين يخوفون من هذا الاستبداد ، يقولون ان طبيعة الاسلام تدعو الى الاستبداد من الحاكم ، او تدعو المحكومين الى الرضى والخنوع .

ولكن الاسلام هو هو الدين الذي قرر للمجتمع نظاما لا سيد فيه ولا مسود ، ولا اشراف فيه ولا عبيد . نظاما يجعل ابا بكر وعمر . اكبر صاحبين لرسول الاسلام . تحت امرة مولى من الموالي وقيادته ، فلا يرى احد في هذا شيئا ولا يريان . نظاما يدع ابن الرجل من عامة الشعب في مصر يضرب « ابن الاكرمين » ، ابن حاكم مصر عمرو بن العاص ، بأمر الخليفة وامام الجموع . نظاما يندر من يقبلون الاستضعاف والدلل بالعذاب الاليم : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الارض ، قالوا : ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » ويحرضهم على القتال لحقهم : « ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد » وينذروهم لو سكتوا عن الحاكم الظالم فلم يغيروا عليه : « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان على الله ان يدخله مدخله » .

افهذا هو النظام الذي يشفق المشفقون ان يؤدي الى استبداد
الحكام واستسلام المحكومين ؟ ام هو التمثل والتضليل ؟

بقي الخوف من ضيق آفاق القائمين على الحكم الاسلامي
وجمود تفكيرهم . وما احسب هذه الصورة قامت في اذهان هؤلاء
الرفاق ، الا من اقتران حكم الاسلام بمصائب الشيوخ ومصايح
الدراويش !

فاذا تبين ان هؤلاء لن يكونوا اسناد حكم الاسلام في مصر ،
بل طرداه ، ما لم يغيروا ما بأنفسهم ، ويعملوا عملا منتجبا غير
مجرد الصلوات والاذكار والتراويل . اذا تبين هذا فيجب ان
تخفى هذه الصورة النكدة لحكم الاسلام ، ما لم تكن النعمة موجهة
لمبادئ الاسلام في ذاتها لا للمشايخ والدراويش . فهل انه لكذلك
ذلك الدين العظيم ؟

ان احدا لم يجرؤ الى اليوم ان يتهم هذا الدين ذاته بضيق
الافق والجمود ، وهو يعرف عنه شيئا يسمح له بالحديث في
الموضوع . فاما الذين يخوضون فيما لا يعرفون ، فهم لا يستحقون
الاحترام ، لانهم لا يحترمون أبسط قواعد الجدل والحديث .

ان هذا الدين لا يدخل نفسه ابدا في الشؤون العلمية البحتة ،
ولا العلوم التطبيقية المحضة ، باعتبارها من امور الدنيا . و«انتم
امرف بشؤون دنياكم» قاعدة اساسية فيه . ومثله يخرج نفسه
نهائيا من الميدان الذي حشرت الكنيسة نفسها فيه في القرون
الوسطى ، فحرقوا العلماء وسجنتم لانهم يتحدثون في العلم ، وهي
تحشر نفسها فيه !

فاما شؤون الاجتماع وشؤون المبادات ، وسائر ما يتعلق
بروح الانسان وفكره ، فكل ما لم يحلل حراما منصوصا عليه نصا
صريحا ، او يحرم حلالا منصوصا عليه نصا صريحا ، فهو رأي
يحتمل الصواب والخطا ، ويجادل صاحبه بالحسنى ، ويحميه
الاسلام ان يصيبه الاذى ، الا ان يكون كفرا صراحا بواحا ، لا يحتمل
الشك ولا التأويل .

فأما الحدود الإسلامية فتلك شيء آخر ، شيء يدخل في دائرة الجرائم الاجتماعية التي تصان بها حرمة المجتمع وكرامته ومصالحته . فإذا خطر لأحد أن يرميها بالقسوة ، وأن يتحدث عنها باسم المدنية والهمجية فذلك شأن آخر . لنا فيه حديث .

أن هذه الحدود كقطع يد السارق ، ورجم الزاني المحصن أو جلده ، وجلد غير المحصن ، وجلد السكر . . قد تبلى قاسية عند النظرة الأولى وعند من لم يدرس فكرة هذا الدين الكلية وقواعده العامة جمة .

أن الإسلام لا يقيم هذه الحدود على مرتكبي تلك الجرائم إلا بعد أن لا يكون لهم مدر ما في ارتكابها ، ولا شبهة في وقوعها .

أنه يقطع يد السارق ، الذي لم يسرق اضطرارا ليطلع نفسه أو يطعم أهله ، فإذا كانت هنالك مبررات اجتماعية أو فردية تضطر إلى هذه الفعل فلا عقوبة ، بل ربما عاد بالعقوبة على من دفع المجرم إلى ارتكاب جريمته ! وهكذا فعل عمر مع غلمان سرقوا ناقة . فلما علم أنهم سرقوا لأن سيدهم لا يعطيهم الكفاية من الطعام ، أطلقهم وغرم السيد لمن هذه الناقة ضعفين . ولما كان الجوع في عام الرمادة مغل حد السرقة .

وأنه يرجم الزاني الذي يضبطه الشهود في حالة تلبس كامل أو يجلده ، في الوقت الذي لا يبيح لأحد أن يتسور على أحد داره أو يتجسس عليه . فالزاني الذي يضبطه الشهود أذن لا يرتكب هذه الفاحشة في خفية ، بل في مكان يستطيع الشهود أن يضبطوه فيه ، فهو أذن مجرم فاحش متبجح ، ينشر الفاحشة ويشيعها ، والله يكره هذا ويمقتة : « أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة » .

فأما الذين يرتكبون هذه الفاحشة متسترين ، ثم يعترفون طلبا للتكفير ، فالإسلام يراف بهم رافة شديدة ، ويحاول أن يتلمس

لهم الشبهات ، كي يعفى هذه الضمائر المتحرجة المتطهرة من العقاب .

والذي يرجح أن هذه العقوبة مراعى في تشديدها ، فكرة نشر الفاحشة ، أن عقوبة الجلد ، توقع على فريق آخر : فريق الذين يشيعون الفاحشة بنشر الاشاعات والأراجيف حول أعراض المؤمنات الطاهرات :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » .

كذلك الحال في حد شارب الخمر . فهو يجلد إذا ضبط شاربا . فإذا كان في خفية ، لم يره أحد ، فليس لأحد أن يتسور عليه بيته أو يتجسس . فاما ذلك المستهتر الذي يجهر بالمعصية ، فمن حق المجتمع أن يقي نفسه من نشر المثل السيئ في جوانبه ، ومن حقه إذن أن يعاقبه . فاما حين ينستر ولا يتبجح فذلك حسابه مع ضميره ومع خالفه . وتلك مسألة أخرى ، يتولاها الاسلام بإيقاف الضمير لا بالعقوبة .

ونستعير هنا رأيا للاستاذ محمد قطب سجله في كتابه : «الانسان بين المادية والاسلام» عن العقوبات الاسلامية ، خلاصته : ان الاسلام يمنع أولا كل الاسباب التي تضطر الفرد الى ارتكاب الجريمة ، ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها ، وبذلك لا يبقى لمرتكبها عذر في ارتكابها ، الا متبجحا مستهترا مختارا ، وحينئذ لا تكون العقوبة قاسية مهما بدت قاسية ، لأن الاسلام لا يتلمس الاسباب ولا يتربص الدوائر ، بل يقي . فإذا لم تنفع الوقاية ، فالعلاج إذن ضروري لا محالة (١) .

ذلك واضح . فاما الذين في قلوبهم مرض ، فيعدون هذه

(١) تراجع فصل الجريمة والعقاب في كتاب « الانسان بين المادية والاسلام »

الاحتياطات في حدود الاسلام دلالة على عدم جديتها ! وهي جهالة تافهة ، تأخذ الاشياء من سطوحها في مجلة مستهترّة تنافي كرامة العلم ، ووقار البحث ، والجهد الضروري في تناول مثل هذه الامور .

... وبعد ! فليطمئن المخلصون من المفكرين ورجال الفنون ومن اليهم ان حكم الاسلام لن يسلمهم الى المشائق والسجون ! ولن يكبت افكارهم ، ويحطم اقلامهم ، وينبذهم من حمايته ورعايته ، ولا ياخذوا الصيحات التافهة التي يصيحها اليوم رجال الدين المحترفون في وجه بعض الكتب وبعض الافكار حجة ! فانما هذه الصيحات تجارة رابحة اليوم ، وحرقة كاسية ، لانهم يمشون في عهد الاقطاع الذي يقيمهم حراسا لمظالمة وجرائمه ، ولكي يبرروا وجودهم في امين الجماهير يطلقون هذه الصيحات الفارغة بين الحين والحين .

فاما حين يكون الحكم للاسلام ، فلن يبقى لهؤلاء ممل ، فسيكونون يومئذ مجندين لعمل منتج نافع ، هم وبقية التعتلين المتسكعين من كبار الملاك ورجال الاموال ، ومن الموظفين والمستخدمين في الدواوين ، ومن احلاس المقاهي والمواخير والحانات ، ومن المشردين في الشوارع والطرقات ، او المعطلين للشمس حول الاجران .. وكلهم في التبطل والتسكع سواء . بعضهم كاره مضطر ، وبعضهم كسول خامل ، وبعضهم مستغل مستهتر .

وحين تندفع الجموع في تيار العمل النشيط ، لن تكون هناك جرائم تقام عليها الحدود الا في القليل النادر ، وفي حالات الشدود ، الذي لا بد منه في المجتمعات .

غموض النصوص

بعض الابرياء الجهلاء يصدق ما يشيعه المفرضون من غموض النصوص في الشريعة الاسلامية ، لان بعض هؤلاء المفرضين

يتسمون باسم العلماء ، فتنشأ في نفوسهم شبهة في ان قبول النصوص للتأويل ، سيحيلهم الى عماية ومناهة ، فلا يجدون اصول القانون الذي يحكمهم واضحة معروفة .

والجهل بهذا الدين هو الذي يبقى على مثل هذه الشبهة في النفوس ، والتفسيرات والحواشي والشروح التي عكف عليها الازهر في وقت جموده ، والتي ما يزال يعيش عليها ، دون الرجوع الى منابع الاولى الواضحة البسيطة ، يجعل للجهلاء بالدين علرا . فان هم وهذه المناهة الواسعة في الحواشي والشروح II

وثمة اصل آخر لهذه الشبهة لا يعرفه الابرياء الجهلاء ، ولكن يتخذ به بعض المفرضين وسيلة للتخويف . . هو شمول المبادئ الاسلامية وسعة اصولها . وبدلا من ان تكون هذه مزية تحمد ، فانهم يجعلونها خطرا يخشى . .

ان الاصول الاسلامية ليست هي هذه الشروح والحواشي التي يتدارسها الازهر ، ليقتل بها شباب طلابه ، ويأكل اعمارهم ، ليخرجوا منها باقوال متعارضة ، وجدل عقيم . ولقد كتبت قبل اليوم كتابا كاملا عن « العدالة الاجتماعية في الاسلام » في نحو ثلثمائة صفحة وكتابا آخر عن « السلام العالي والاسلام » في نحو مئتي صفحة ، فلم أجد انني بحاجة الى الرجوع الى شيء من كتب الحواشي ، لان الينايسع الاصيل في الاسلام في الكتاب والسنة والسيرة والتاريخ ، كانت كافية لي لاخراج هذين البعثن ولاخراج سواهما معا سيجي .

والمذاهب الاربعة الكبرى في الاسلام كان مصدر كل ما فيها من احكام وتشريعات هو الكتاب والسنة . . وهي مصادر ميسرة للكثيرين .

نعم قد تختلف الآراء في الجزئيات والتطبيقات . ولكن كل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروح . ويتجادل فيها الفقهاء القانونيون . لم لا يندموا احد الى نيل تلك النظريات

التشريعية ، لأن الشراح لم يجمعوا فيها على تفسير .

فأما سعة المبادئ وعمومها ، فذلك في غير الحدود ، أي في الشؤون العامة المتجددة مع الحياة . كتقرير مبدأ الشورى في الحكم ، وترك الطريقة التي تتم بها الشورى دون تحديد . كما ينص الدستور المصري الحاضر على أن تكون الحكومة برلمانية ، ثم يترك طريقة الانتخاب لقانون الانتخاب . وكتقرير مبدأ دهر الحدود بالشبهات ، ثم ترك بيان الحالات التي يدور فيها الحد عن المتهم ، يصوقها القانون الذي يفسر هذه القاعدة ، أو يحددها القاضي الذي يزاول النظر في الحادثة . وكتقرير مبدأ قتال الفئة الباغية من المتحاربين حتى تغيب إلى أمر الله ، وترك تحديد الحالات التي توصف بأنها حالات بغى للمحكّمين فيها . وذلك ما تصنعه هيئة الأمم المتحدة اليوم في تقرير أن حالة ما تعد اعتداء ترويه بقية الأمم ، حتى يغيب المعتدي إلى أمر القانون الدولي !

أن الحلال بيّن والحرام بيّن . أما الذين يتعمدون التأويل لأغراض غير التي يعنىها القانون ، فهم مستطيعون ذلك في كل وقت ، وفي ظل أي قانون . وما نحن أولاء نرى كل وزارة تلي الحكم تجد للقانون تفسيراً وتأويلاً ، وترتكب في ظله ما لم يخطر على بال واضعه . يقال حينئذ إن هذه القوانين يجب أن تلغى ، لأن طافية من العنفة قد أولها تأويلاً سيئاً قبله نصوصها أو لا قبله ؟ فما بال القانون الإسلامي وحده هو الذي يتهم عندما يؤوله العنفة تلك التأويلات ؟

إنها شبهة ظالمة في الواقع لا تنهض على أساس سليم .

الحریم !!!

هنالك شبهة قوية لصقت بهذا الدين ، وهي بعيدة من روحه وتعاليمه ، بعدها عن الواقع التاريخي فيه . . شبهة « الحریم » !
أن « الحرملك » و « السلامك » لفظان تركيان ، يشيران إلى

نشأة ذلك النظام في العالم الاسلامي . وما اظن احدا يتهم الاثراك
بانهم فهمة للاسلام ، ولا كانوا من الصحابة ولا التابعين !

لقد كانت وثبة الاسلام بالمرأة وثبة ثورية بالقياس الى العصر ،
وما تزال الى اليوم خطوة انسانية كريمة ، لم تزد عليها الحضارة
الفربية الا حرية الاستهتار !

ان الكثرات يخشين لو صاد الاسلام الى الحكم ان يردهن
رقيقا ، او ان يحبسهن في الحريم . وهي خشية لا اساس لها ،
ولا يعرف الاسلام منشأها . والذي نعلمه وتؤكد ان المرأة الفاضلة
ليس لها ان تخشى من الاسلام وحكمه شيئا ، فقد منحها الاسلام
من الحرية الواسعة الكريمة ما هو حسب اي انسان فاضل شريف
للعمل المشر في حياة المجتمع .

منحها حق الملك والكسب بالطرق المشروعة ، ومنحها حرية
تزوج نفسها ممن تشاء بلا ضغط ولا ارغام ، ومنحها حق الخروج
والدخول في ثياب محتشمة ، لا تثير الشهوات ولا تجعلها نهبا
للمنزوات .

نعم . انه منحها ان تخرج للناس بثياب السهرة ! او ان توزع
النظرات الفزلة ، والضحكات الفاجرة . . فمن كانت لا تعرف
الحرية الا هكذا ، فلتخش الاسلام وحكم الاسلام !

فاما الدين يتحكسون بحرية المرأة ، ليتحككوا بالمرأة ، من
اصحاب الافلام المائعة ، فأولئك يعرفون اهدافهم ، وتعرفها أوكار
النساء التي ترحب بهم ، وتدعوهم الى حفلاتها الدامرة ، التي
يتجرد فيها الانسان من كل مقومات الانسانية ، ليرتد حيوانا في
غابة ، وينقلب الجنسان ذكرا وانثى . . وهذه الحفلات الدامرة لا
يعرفها الاسلام .

لقد كان النساء في عهد محمد صاحب هذا الدين ، يذهبن
الى المسجد للصلاة ، ويذهبن الى السوق للتجارة ، ويخرجن في

الغزوات لتشجيع الرجال . فإذا جاء عصر من عصور الظلم والاستبداد فأحال المرأة سامة، فقد أحال ذلك العصر نفسه الرجال إلى أرقاء .

انه ليس الاسلام الذي كان يأمر السلاطين بالقام الرجال في حب الحيات ، وكذلك لم يكن هو الذي يأمر الرجال بالقام النساء في « الحریم » انما كان ذلك ظلما شالما ذهب ضحيته الرجال والنساء سواء .

كذلك ليست « الحرية » هي التي تكشف الافخاذ والنهود في الحفلات الساهرة اليوم . انما هي النعارة الروحية تتزيا بري الارستقراطية ، والعبودية للجسد تتزيا بري الحرية .

فإذا جاء حكم الاسلام ، فسيرد للمرأة حريتها الكريمة التي تنقلها من الرجعية التي لا تزال تسيطر في بعض الاوساط، والتي تنقلها كذلك من الاباحية التي خرجت من وسط « الارستقراطية » .

انه سينقد روح الانسانية المهينة في « الحریم » وفي « الصالون » سواء . فهي في الاولى مهينة بالكبت والظلم ، وهي في الثانية مهينة بالرخص والابتدال .

انه لا خوف من الاسلام على امراة فاضلة تزاوّل نشاطها الانساني في حدود الشرف والكرامة . فاما اللواتي لا يسمهن هذا المجال ، فلهن ان يخشين كل الخشية من حكم الاسلام (1) .

التعصب ضد الاقليات

بقيت شبهة اخيرة ، انا اكره الحديث فيها ، ولكن بعضهم يشير اليها تصرّحا أو تلميحاً ، وبعضهم يتغلفها تكاة وسببا لارضاء

(1) يراجع هذا الموضوع يتوسع في كتاب « السلام المالي والاسلام » (المجلد: سلام البيت)

غايات صغيرة ، وتحقيق منافع يسيرة . . تلك هي مسألة الاقليات في حكم الاسلام ، وقومية الحكم في ظل اسلامية التشريع .

انني احسب مجرد التخوف من حكم الاسلام على الاقليات القومية في بلاده نوما من التجني الذي لا يليق ، فما من دين في العالم وما من حكم في الدنيا ، ضمن لهذه الاقليات حرياتهما وكراماتهما وحقوقها القومية ، كما صنع الاسلام في تاريخه الطويل . بل ما من حكم دلل الاقليات فيه كما دلل الاسلام من تقلهم ارضه من اقلية . لا الاقليات القومية التي تشارك شعوبه في الجنس واللغة والوطن ، بل الاقليات الاجنبية عنه وعن قومه .

وما كان جزاء الاسلام على عدله وحسن رعايته ، الا اضطهاد اتباعه في بلاد الاديان الاخرى ، وفي ظل جميع انواع الحكم ما عداه في القديم وفي الحديث سواء مما يجعل الحديث عن قومية الحكم لا اسلاميته ، حديثا بغيضا ، لا سند له من الحق ولا من الواقع ولا من التاريخ ، ولا من روح الانصاف التي يجب ان يتحلى بها المواطنون في كل بلاد الاسلام .

وساختر هنا عهدا من عهود الاسلام كان ينتظر ان يكون اشد العهود تعصبا وقسوة وفظاظة . اذ انه كان في العهود المظلمة وكان القالمون عليه هم الاثراك . وسادع كتابا مسيحيا اوروبيا يتحدث عنه في معاملته للاقليات غير المسلمة والبلاد المفتوحة . وساكثفي بهذا المثال دون سواء ، لانه يبلغ فصل الخطاب في هذا المقام .

قال « سيرت ، و . ارنولد » في كتابه « الدعوة الى الاسلام » ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ص ١٢٨ - ص ١٣٩

« ان المعاملة التي اظهرها الابطاطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين - على الاقل بعد ان غزوا بلاد اليونان بقرنين - لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر اوروبا :

وان اصحاب كلفن Calvin في المجر وترنسلفانيا ، واصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترنسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع في ايدي امرة هابسبورج المتعصبة ، ونظر البروتستانت في سيليزيا الى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور ان يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الاسلامي . وحدث ان هرب اليهود الاسبانويون المضطهون في جموع هائلة ، فلم يلجأوا الا الى تركيا . كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون الى فرقة المؤمنين القداماء Old Believers الذين اضطهدهم كنيسة الدولة الروسية ، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما انكره عليهم اخوانهم في المسيحية . وربما يحق لمقاريوس بطريق انطاكية في القرن السابع عشر ان يهنيء نفسه حين رأى اعمال القسوة الفظيعة التي اوقعها البولنديون من الكاثوليك Catholice Poles على روسي الكنيسة الشرقية الارثوذكسية ، قال مقاريوس : « اننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الاعوام الاربعين او الخمسين على يد اولئك الاشقياء الزنادقة اعداء الدين . وربما كان عدد القتلى سبعين الفا او ثمانين الفا . فيا ايها الخولة ! يا مرده الرجس ! يا ايها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والاطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولماذا اسميهم البولنديين المعونين ؟ لانهم اظهروا انفسهم اشد انحطاطا واكثر شراسة من هباد الاصنام المفسدين ، وذلك بما اظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك انهم يمحون اسم الارثوذكس . ادام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الابد . »

فماذا لقي المسلمون في مثل ذلك الزمان ، بل ماذا يلقون حتى الان ؟ ان الجرائم الوحشية ترتكب ضدهم في الحبشة جارتنا ، وفي الملايو تحت الحكم الانجليزي (1) وفي روسيا وبوغوسلافيا وسائر

(1) واقترب الحوادث الى الالمان حادث القسوة البولندية التي التقطتها سيدة مسلمة وهي طفلة شاردة لرعتها وربتها فنشأت مسلمة وتزوجت من مسلم .

البلاد الشيوعية التي يزعم المروجون لها هنا ، والمستغفلون من
أخواننا ان لا علاقة لها بالاديان ، ولا عصبية فيها ضد الاسلام .
وفي الهند التي هددنا سفيرها في مصر ، لان سفيرنا بالباكستان قد
نسبت اليه كلمة حق عن كشمير . لا بل ان هذه الجرائم الوحشية
لترتكب ضدهم في عقر دارهم ، في الشمال الافريقي على يد فرنسا ،
وفي جنوب السودان على يد انجلترا ، وفي كل مكان يضع فيه
الاستعمار قلمه حتى الآن !

ان كل ما يذكرونه ضد حكم الاسلام هو اصدقاء لبعض المذابح
الارمنية على ايدي الترك المتأخرين . ولكن هذه المذابح لم تكن
وليده تعصب ديني ، بل كانت ذات طابع سياسي . فهذه العناصر
كانت شوكة تستخدم دائما لوخل الدولة العثمانية في ابان ضعفها ،
وتحركها روسيا او اوروبا لاسباب سياسية ، ناشئة عن روح
صليبية ، على ان ما وقع للارمن المسيحيين وقع مثله للعرب
المسلمين في سورية ، في ظروف سياسية مشابهة . وقد قامت
بهذه وتلك ارذل العناصر في الدولة العثمانية ، تلك العناصر التي
هي بطبيعتها شغوفة بالدماء والقسوة والاجرام ، واستوى
المسلمون وغير المسلمين في تلقي ويلاتها وآلامها في طول البلاد . وما
كان هؤلاء فهمة للاسلام ولا لغير الاسلام !

ان الحكم حين يصير الى الاسلام ، سيسير على مبادئه
السمة الكريمة ، التي لا يملك انكارها احد . ولن يتغير على
الاقليات شيء في اوضاعها ولا حقوقها التي تتمتع بها الآن .

وعلى الذين يتحدثون في هذا الموضوع ان يذكروا ان الولايات
المتحدة الامريكية التسع والاربعة ، ليس فيها حاكم كاثوليكي
واحد ، لجرد ان الاغلبية هناك من البروتستانت . وكلاهما

ه اذا بالدولة الانجليزية تجند جيشها لرد هذه الفتنة الى المسيحية ، وغرب
مسلمين سنافورة بالمذابح الرضاة ! انها تدل على التسامح الديني الكامل !
التسامح الانجليزي والهولندي بطبيعة الحال !

مسيحي ، لا يختلف عن صاحبه الا في المذهب .

وعليهم ان يذكروا ان اضطهاد المسلمين في الحبشة قد بلغ الى حد استرقاق المدين المسلم الذي لا يوفي بدينه للمسيحي .
لجورد ان الحكم للمسيحيين . ولو ان الاغلبية الصمدية هناك للمسلمين !

ما الذي يمكن ان يفتح به فمه انسان عن حكم الاسلام من ناحية الاقليات ؟ ان الحياء وحده يكفي ، وانني لاكره الحديث في هذا الموضوع ، فكل حديث فيه هو نوع من التجني القبيح لا يليق !

عداوات حول حكم الإسلام

لقد تحدثنا منذ لحظة الى الابرياء ، الذين تفهم الشبهات في نفوسهم حول حكم الاسلام ، فيتخوفون منه ويقلقون ، لا لانهم يكرهونه ، ولكن لانهم يجهلونه ، ولقد كان من حقهم علينا ان نجلو لهم هذه الشبهات ، وان نرفع من عيونهم هذه الفشاعات ، وان نجادلهم بالنسبة الى احسن ، بوصفهم مجنونا عليهم بجهل هذا الدين لا جناة !

ان هؤلاء الا فريسة فريق آخر او فرق اخرى ، ليست في مثل براءتهم ، وليست في مثل غفلتهم ! انما تكيد للاسلام كيدا عن وعي ومن قصد ، وتصوره للابرياء الجاهلين هذا التصوير البشع المخيف لغاية والغرض . ومن حق اولئك الابرياء الغافلين ان تكشف لهم هؤلاء الخبثاء الماكرين ، وان نطلعهم على ما خلف الستار من المكر السيء والفرس الدفين .

ان لحكم الاسلام امداء كثيرين في الخارج وفي الداخل ، فيهم الذممة الاقوياء ، وفيهم المهزلة والمهاويل ، غير انهم يلتقون عند مصالح لهم مشتركة في اقصاء الاسلام من الحكم في الحياة ، وهم يعارضون في رد الحكم الى الاسلام بحجج شتى ، وبمنطق مختلف ، وبشبهات ولحن متباينة يتألف منها جميعا دوي يخيل لمن يسمعه وهو لا يعرف مصادره ان هنالك شيئا ، وان وراءه حقا ! فلننظر اذن في شان تلك العداوات .

عداوات الصليبيين

لقد انتهت المسيحية في اوروبا وامريكا الى ان تصبح راية قومية تتجمع تحتها جموعهم ، لا عقيدة دينية - كما هي طبيعة

المسيحية - وهم اذ يتنادون اليوم باسم حماية الحضارة المسيحية من هجوم الشيوعية عليها كما كانوا يتنادون ايام الفاشية والنازية، لا يقصدون العقيدة المسيحية كديانة ، بل يقصدون الامم المسيحية كأوطسان وقوميات . والمسيحية ليست الا سثارا يتخذونه لاستجاشة حمية البلاد المسيحية جميعا ، وهذا ما يفسر الانحلال الخلقي والاجتماعي الذي يتزايد في محيط البلاد المسيحية - منافيا لكل تعاليم المسيحية - في الوقت الذي ترتفع فيه الدعوة باسم الحضارة المسيحية !

وبهذا الوضع للمسألة لا تبدو هنالك غرابة في الجمع بين التحلل من روح المسيحية في أوروبا وأمريكا ، والخصومة والعداء لغير المسيحيين في البلاد الأخرى ! انه لا غرابة ولا لغز يحير الافهام، ولكنها اللعبة الماهرة مع المغفلين والسذج من اهل الديانات الأخرى، وبخاصة أهل الاسلام . . ان الغرب يوحى لهؤلاء الغافلين ، ان الدين عامل ثانوي لا قيمة له في حياتهم ، مستشهدين بتحللهم من قيوده في مجتمعاتهم ، فينشق أصحابنا بهذه الدعوة ، ويسيروا عليها ، ويخربون بيوتهم بأيديهم لا بأيدي أعدائهم الدهاة . ذلك بينما العالم الغربي كله ينصب للاسلام، ويكن له العداوة والبغضاء.

ان الحروب الصليبية لم تضع أوزارها الا في نفوس المسلمين وفي عالم المسلمين ، فأما في العالم المسيحي فهي مشبوبة الأوار ، وهي تشغل من أذهان القوم وسياستهم مكانا بارزا ، يبدو في شتى مناحي الحياة . ونحن بغفلة منقطعة النظر نقدم لهم المسون والمساعدة في هذه الحرب المشبوبة الأوار .

ان الصليبيين الاحياء لم ينسوا يوما ان بيت المقدس هو البقعة التي نارت من أجلها الحروب الصليبية ، وحينما دخل الماريشال « النبي » بيت المقدس في الحرب العظمى الماضية تحرك لسان الصليبية الكامنة في دمه وفي دم كل صليبي . تحرك لينفث أوار الصليبية الكامن : « الان انتهت الحروب الصليبية » !

وحين قضت السياسة الاستعمارية والواقع المادي ان تكون فلسطين للعرب - أهلها وسكانها - تحركت هذه الصليبية مرة أخرى بفكرة الوطن القومي لليهود ، ثم انتهت الى المأساة الأخيرة على عين إنجلترا وأمريكا وبصرهما ، وبأسلحتهم وأموالهم - تشترك معهما الشيوعية التي تطرد الدين من حسابها ، إلا ان يكون هذا الدين هو الاسلام ، فهي تحاربه باسمها لا باسم الصليبية ، تحاربه لحسابها الخاص ولمصلحتها الخاصة - كما سيأتي - وقال المغفلون هنا : ان الدسائس الاستعمارية والمصالح الشخصية وحدها هي التي تحرك إنجلترا وأمريكا . ذلك انهم لا يفتنون الى ان روح الصليبية كامن وراء السياسة الاستعمارية كذلك ، يذكي العوامل الظاهرة ويقويها .

وقد بقي بيت المقدس القديم وحده في ايد عربية - هي على كل حال مسلمة ! وهنا يجيء دور هيئة الامم ، لترد هذه البقعة الى حكم الصليبيين مرة أخرى ! لا باسم الصليبية سافرا ، ولكن باسم « التدويل » وتجد من صراع الاقزام الدائر بين الدولات العربية ، بل بين البيوت المالكة وحدها في هذه الدولات ، مشجعا وناصرا . وتجد من سياسة الاقزام في هذه الدولات البائسة ، من يعد ذلك سياسة قومية مرسومة !

ان الصليبيين يعرفون ويقول الصرحاء منهم - وقد سمعته في أمريكا بأذني - ان الاسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم . فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية ، اذ انها جميعا ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج اقوامها وأهلها ، وهي في الوقت ذاته اقل من المسيحية رقيا . فاما الاسلام فهو - كما يسمونه - دين متحرك زاحف ، وهو يمتد بنفسه وبلا اية قوة مساعدة . وهذا هو وجه الخطر فيه في نظرهم جميعا . ولهذا يجب ان يحترسوا منه ، وان يقاوموه ويكافحوه .

ونحن الغافلين في الشرق لا ندرك ضخامة الجهود التبشيرية التي تبذلها أوروبا وأمريكا لنشر المسيحية في أرجاء العالم كله ، في

مجاهله ومعموره سواء ، لا ندرك ان الكنيسة الكاثوليكية وحدها نحو اربعة آلاف بعثة تبشيرية ، تنتشر في انحاء الارض ، وتذهب الى مجاهل الكونغو والتبت ووراءها الاموال الضخمة التي لا تنفذ .

وهذه الجهود لا يقوم بها المبعوثون وحدهم ، بل تعتمد كل الاعتماد على الوطنيين في البلاد الاخرى ، وتتخذ لها طرقا وعنوانات شتى ، وتنزىا بازياء كثيرة ليس الزي الدينى الا واحدا منها . ففي مصر مثلا يعد رجل كجورجي زيدان منشئ دار الهلال ، ورجل كسلامة موسى الكساب الصحفي ، رسولين مهمين للتبشيرية ، يجدان في فغلة المصريين والشرقيين - بما في ذلك اصحاب الصحف والقراء - مجالا طيبا للعمل ، الذي لا تنهض به جمعيات تبشيرية كاملة ، باسم الثقافة والادب والصحافة !

والحكومات تشجع هذه البعثات وتؤيدها ، لانها ترمي من وراء المسيحية الى اهداف سياسية واقتصادية ، وتعد المسيحية علما قوميا ينتشر ظله في هذه الاصقاع كما اسلفنا .

والدين الوحيد الذي يقف في وجه هذه الجهود ، هو الاسلام وحده كما تقول تقريراتهم ، وكما يفصح احيانا بعض المرحاء منهم !

وهؤلاء الصليبيون يعرفون ان الاسلام ليس شيئا آخر غير حكم الاسلام ، فهو لا يستطيع ان يتحقق كاملا وقويا في هذه الارض بغير هذا الحكم ، الذي يحول العقيدة شريعة ، ثم يقف ليحميها ويدفع عنها .

لذلك يحاربون رجعة الحكم الى الاسلام محاربة قوية لا هوادة فيها . يحاربونها بنفوذهم وبقوتهم ، كما يحاربونها بوساطة المغفلين منا ، وذوي المصالح الذين يخشون حكم الاسلام عليها . وعلى حين تنكر اوربا وامريكا على الاسلام ان يحكم في اية بقعة من بقاع الارض ، وأن تقوم على اساسه دولة تحمل لواؤه ،

وتعمل بفكرته ، وتنفذ قوانينه . وعلى حين ينثق النامقون هنا وهناك في الاقطار الاسلامية ممن استعمرت اوريسا وامريكا ارواحهم . . بان الزمن قد مضى فلم يعد يحتمل قيام دولة على اساس الدين . .

على حين هذا وذلك تنبت كالشوكة دولة اسرائيل ! تركز على الدين . . وعلى الدين وحده . . فاليهودية ليست جنسية بل ديانة . تضم الروسي والالمانى والبولندي والامريكسي والمصري واليمنى . . . وكل من هب ودب على وجه هذه الارض من الاجناس . . وعلى اليهودية وحدها تركز اسرائيل بتشجيع انجلترا ، وتمويل امريكا . فاما روسيا الشيوعية فلنضع حديثها في هذه المأساة على جنب ! فان تكبرها على الدين اشد ، واتكارها لقيام دولة على الدين اعنف . ولكن هذا كله يتبخر وتتبخر معه مبادئ الشيوعية الاساسية ، عندما يطل وجه المصلحة الشخصية !

وما يلقاه الحكم الاسلامي من عنت الصليبية في مصر تجد منه « الباكستان » اليوم ما تجد في قضية كشمير مع الهند . والمغفلون هنا لا يفطنون الى انها الروح الصليبية التي تملئ على هذه الدول المسيحية سياستها ، فيحاولون ان يردوها الى اسباب اخرى !

ان اجهزة الدعاية الامريكية في الشرق هي التي تتولى الدعاية للهند ، باموال امريكية يظهر صداها في صحافة الشرق واضحا ! لماذا ؟ لان الهند ليست مسلمة ، ولان بينها وبين اول دولة مسلمة في الشرق نراها . والكثرة من الحاكمن في الدولة الامريكية تخرجوا في الماهد التبشيرية . وهي حقيقة افضى الي بها احد الاساتذة الانجليز الذين التقيت بهم في امريكا ، وعدت لي عشرات من الاسماء البارزة في وزارة الخارجية الامريكية وفي السلك السياسي . ولم يكن يفضي الي بهذه الحقيقة بريثا لوجه الله ! وانما هو - كما عرفت فيما بعد - احد رجال قلم المخابرات البريطاني الذين يهمهم

الا يثق الشرقيون كثيرا في نيات امريكا ! مما دعاني الى التشكك في
بياناته لي فتحققتها بوسائل اخرى .

ان الاسلام لا يجوز ان يحكم . . هذه رغبة العالم الصليبي .
وعلينا نحن ان نؤمن . وان نصدق ما يوحى الينا به الصليبيون في
الشرق والغرب ، في سداجة وغفلة ، باسم التحرر والثقافة !
الا من للاقزام ، بمن يقتلهم انهم ليسوا بعد الا الاقزام !

عداوات المستعمرين

بصحب الفصل بين عداة الصليبية للاسلام وعداء الاستعمار .
فكلاهما يغذي الآخر ويسنده ويبرره . والاسلام عقيدة استعلاء
تكافح الاستعمار حين تستيقظ في نفوس اصحابها ، ورجعة الحكم
الى الاسلام توقف هذه الروح بشدة ، فتفسد على الاستعمار خطة
الاستغلال والاستدلال .

ان الاسلام يحرم على ابيائه ان يخضعوا لاي حكم اجنبي ،
بل لاي تشريع لا يتفق مع شريعة الاسلام . وذلك حقبة في طريق
الاستعمار كؤود . والمستعمرون ليسوا في غفلة مثقفينا الفضلاء ،
ولا في بلاهة حكامنا النابئين ! انهم يقيمون استعمارهم على دراسات
كاملة متشعبة لكل مقومات الشعوب التي يستعمرونها ، كي يقتلوا
بدور المقاومة ، او يتفادوها او يداروها . وقد قام الاستشراق على
هذا الاساس . قام ليساعد الاستعمار من الوجهة العلمية ، وليمد
جلوره في التربة العقلية كذلك . ولكننا نحن هنا نعبد المستشرقين
ببلاهة ، ونعتقد في سداجة انهم رهبان العلم والمعرفة ، وانهم بعدوا
عن نشاطهم الاولى ، وقطعوا صلتهم بالملة التي نشأوا منها !
وبخاصة اذا موه علينا بعضهم بكلمة طيبة تقال من ديننا وعن
نبينا ، كي تكون هي الطعم لتستنيم افكارنا الى الايحاء في ناحية
اخرى !

وان الانسان ليضحك احيانا . ولو انه ضحك مر .

و « المثقفون ! » فينا يتعاملون بالحديث عن « الاخلاص العلمي »
للمستشرقين . فاذا خطر لك ان تتشكك في براءة هؤلاء القديسين ،
فانت اذن غير مثقف ! او متعصب تحشر الدين في كل مجال !
ومرة اخرى نسال : الا من للاقزام بمن يقنعهم انهم ليسوا
بعد الا الاقزام ؟!

ولقد كان الانجليز يعرفون ان جيوش الاحتلال ستترك مصر
يوما ما ، ان قريبا وان بعيدا . فلم يكن لهم بد من اسناد للاستعمار
غير جيوش الاحتلال . فاقاموا هذه الاسناد في الميدان الاقتصادي
لاحتلال الاسواق المصرية ، ومحاولة اغلاق الاسواق العالمية الاخرى
في وجه الحاصلات المصرية ، واقاموها في دنيا المال بتبعية تقدرنا
لنقدمهم او لخزانتهم ... الخ .

ولكن هذه الاسناد كلها لم تكن لتقوى على القاء ، لولا
الاستعمار الروحي والفكري الذي عني به الاستعمار في خلال
القرن الماضي ، وما يزال يوليه اكبر عناية في هذه الايام . لقد
ذهب الانجليز البيض من الدواوين ليحل محلهم « الانجليز السمر »
من المصريين المقربين ، المستعمرة ارواحهم وافكارهم ، المصنوعين
على عين الاستعمار ، لاداء اغراض الاستعمار . . وكانت عناية
الانجليز البيض شديدة بوزارة المعارف بوصفها المشرفة على تكوين
الاجيال ، حتى اذا تركوها اليوم للانجليز السمر تركوها مطعنين ،
فما تزال النظم والبرامج والكتب وطرائق التدريس كلها تعمل
للاستعمار الروحي والفكري في نفوس الاجيال . وكلها ابحاث
بنيل العنصر الديني ! وباقصاء الاسلام لا عن الحكم وحده بل عن
الحياة جميعا .

لقد ربي الاحتلال اجيالا متعاقبة ، ما تزال تتكاثر بحكم
العقلية المشرفة على وزارة المعارف ، تنظر الى الاسلام على انه بقية
من بقايا التأخر والانحطاط ، وتعتمد التجرد منه تجردا من تهمة
الجمود والجهل ، ودليلا على « الثقافة ! » والتحرر .

وبرامج التاريخ في المدرسة المصرية وكتبه على وجه خاص من أمكر ما يستطيع الاستعمار أن يصنع ، ومن أفكك ما يقتل الروح القومية والروح الدينية سواء ، فالطالب الثانوي - بل الجامعي - يخرج من دراسة التاريخ - بما في ذلك التاريخ الإسلامي - لا يعرف شيئا من فكرة الإسلام الاجتماعية ، ونظراته الإنسانية ، وكل ما يدرسه غزوات وحروب ، ووقائع وأحداث . ينتهي منها إلى أن الإسلام كان معركة حربية ، ولم يكن يوما ما معركة فكرية ولا اجتماعية ولا إنسانية !

وساعد الاستعمار على تشويه الفكرة الإسلامية كلها عامل آخر . عامل لم يكن الاستعمار ليجد أفكك منه ولا أفعل في تشويه الإسلام . أولئك الذين اصطلاح الناس على أن يسموهم رجال دين ، من الأسيخ والدراويش ، يمثلون جمود الفكر ، وضيق الأفق ، أو يمثلون الخرافة والجهالة ، ثم يصبغون ذلك كله بصيغة الدين ، فيظهرونه بشما شائها منفرا . ثم يرتكبون في سلوكهم الشخصي والاجتماعي جرائم وموبقات شائنة ، فيلدهبون بكرامة الدين وجديته واحترامه ، وبخاصة حين يشتررون بآيات الله ثمنا قليلا ، فيناصرون الاستغلال والطفيسان ، باسم الإسلام ، وباسم القرآن !

وبذلك تعاون التعليم الاستعماري القائم في وزارة المعارف بإشراف مصنوعات الاحتلال المشرفة على البرامج والنظم والمناهج والكتب ، مع رجال الدين المزعومين ، على أن يبلغ الاحتلال غايته ، وأن يبلغ الاستعمار الروحي والفكري ذروته ، حتى بعد ذهاب الاحتلال !

وفي عناية الانجليز بوزارة المعارف نضرب مثلا قريبا حاضرا قد لا يلتفت إليه الكثيرون .

لقد كان الانجليز يعرفون أن في مصر رجلا اسمه الدكتور طه حسين . وكان الدكتور طه هو الدكتور طه الكاتب الأديب الأستاذ

الجامعي كما هو . لم يزد عليه الا ان اصبح يوما وزيرا للمعارف .
وكان الانجليز يعرفون ان ميول الرجل - حسب ثقافته -
ميول فرنسية . فلما ان صارت اليه وزارة المعارف ، ادركوا ان
هناك خطرا على الثقافة الانجليزية قد يصيبها مع وجود هذا
الوزير .

وهنا فقط تذكروا ان طه حسين اديب كبير، يستحق الدعوة
الى انجلترا، والضيافة على الحكومة البريطانية، والمعهد البريطاني،
والتكريم باللقاب الجامعية من جامعات الانجليز . فقط عندما
صار وزيرا للمعارف .

انه الاستعمار يخشى على حباله في وزارة المعارف ان
تنكشف او ان تتزعزع !

والاستعمار يقوم في وجه الحكم الاسلامي ، لفرض معلوم
ومفهوم ، وهو منطقي مع نفسه ، فما يعقل وهو يحارب الاسلام
عقيدة مستكنة ، ان يدع هذه العقيدة تستحيل شريعة ، ويدع
قوتها الروحية تستحيل قوة مادية . والمستعمرون لا يجهلون
جهالتنا ، ولا يغفلون غفلتنا عن دموة القرآن القوية : « واعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله
ومعدوكم » . ولا يغيب عن اذهانهم ان الحكم الاسلامي سيرد جهاز
الدولة كله اسلاميا : جهازها الاقتصادي والحريي والتعليمي، كما
سيصوغ المجتمع صياغة اسلامية ، وليس اخطر من ذلك كله على
الاستعمار الظاهر والخفي سواء .

كذلك يدرك الاستعمار ان قيام حكم اسلامي سيرد الدولة الى
عدالة في الحكم وعدالة في المال . فيقلم اظفار دكتاتورية الحكم
واستبداد المال . والاستعمار يهمة دائما ان لا تحكم الشعوب
نفسها ، لانه يمز عليه حينئذ اخضاعها ، فلا بد من طبقة دكتاتورية
حاكمة ، تملك سلطات استبدادية ، وتملك ثروة قوية، هذه الطبقة
هي التي يستطيع الاستعمار ان يتعامل معها ، لانها اولا قليلة العدد،

ولأنها ثانيا تستعين به على البقاء ، وتحتاج اليه ليسندها في وجه الجماهير . وهذه الطبقة تتولى اخضاع الجماهير وسياستها ، ويتوارى خلفها الاستعمار ، فلا يبرز دائما بوجهه السافر المثير . ان هنالك حلفا طبيعيا بين الاستعمار ودكتاتورية الحكم والمال ، كلاهما يعتمد على الآخر ، ويتبادل معه المصلحة . وكل ما يتمتع به المستعمرون في بلادهم من خرية وعدالة اجتماعية ، لا يسمحون بأن تستمتع به المستعمرات ومناطق النفوذ . لأن هذه المستعمرات ستواجههم وجها لوجه يوم تتخلص من مظالمها الاجتماعية . وكذلك المستغلون في الداخل لا يسمحون بانتهاء مشكلات الاستعمار ، لأن الجماهير ستواجههم وجها لوجه يوم تتخلص من الاستعمار ! ولما كان الحكم الاسلامي الصحيح ، مظنة ان يحقق للشعوب عدالة مطلقة في الحكم وفي المال ، فان الاستعمار يحاربه حربا شعواء . يحاربه سافرا بنفسه ، ويحاربه مستترا وراء الاستار : استار الطغاة والمستغلين ، واستار « المتحررين المثقفين » واستار المشرفين على التعليم من حيث يشعرون او لا يشعرون ! لقد يسمح الاستعمار بقيام حكم اسلامي زائف ، في بقاع جاهلة من الارض متأخرة ، وفي ظل دكتاتوريات ظالمة مستغلة ، كي يكون نموذجا سيئا منفرا من حكم الاسلام ، بل من ذات الاسلام ! هنا ينمق الناقون من المغفلين والمغرضين ، والاقزام الذين يريدون ان يبدووا شيئا مذكورا . انظروا ها هو ذا حكم الاسلام ! افما ترونه مستتبدا ظالما غاشما ، مستهترا شهواتيا فاجرا ، متأخرا منحطا جامدا . . هذا هو النموذج الحي لحكم الاسلام ، وهو النموذج الدائم لكل حكم ديني على ظهر الارض كائنا ما كان ! ويفرك الاقزام ايديهم من الفرح ، والجماهير البلهاء تتخلق حولهم بسداجة ، والمستغلون يضحكون من الاقزام والجماهير ، ويطمئنون الى ان حكم الاسلام عنهم بعيد . والمستعمرون يضحكون من هؤلاء وهؤلاء جميعا . وهم يتصايحون كلهم داخل المصيدة ، ويتصارعون كما تتصارع الفئران الهزيلة البائسة في مصيدة الفئران !

عداوات المستغلين والطفاة

سلفت الاشارة الى ما بين حكم الاسلام وبين المستغلين والطفاة من صدام ، الا ان يكون الاسلام مستارا وهميا ، لا حقيقة واقعة . ولكن الطفاة والمستغلين لا يطمثون ابدا الى دوام الضلة من الجماهير ، ولا يامنون ان تستيقظ وهي في ظل حكم اسلامي . فتطالب بحقيقته لا قشوره ، ويصبح في يدها يومئذ سلاح قوي ، وحجة يصعب تفنيدها ، ومنبه كان يستخدم من قبل في التخديرا

وان المستغلين والطفاة ليعرفون جيدا ان الجماهير تصعب قيادتها وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية ، فهم يرخصون لها بتشوير هذه العقيدة وبخرافاتها ، فاما ان تصبح حقيقة وجدا ، فدون هذا وتتحرك الرغبة في الدفاع عن النفس والدفاع عن المصلحة ، وهما في واد والحكم الاسلامي في واد .

انه لا ضير من الاسلام حين يكون متممة بالشفاه وطققة بحبات المسابح ، او ادعية وتراويل ، او محملا يطاق به سبعا ، ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسميا او مولدا تطلق فيه « السوارينخ » او مشيخة طرق او نقابة اشراف تخلع فيها الخلع وتمنح فيها الالقاب . . الى آخر اجهزة التخدير التي يستغلها الطفاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير . فاما حين يصبح حكما جادا ينفذ شرائع الاسلام في الحكم والمسال ، ويمنع الحقوق الانسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة ، ولا يفرق بين الشعائر التعبدية والشرائع القانونية . . فدون هذا ويصبح الاسلام خطرا يتقى ، وكارثة تدفع ، ومعركة يخوضها الطفاة والمستغلون بكل ما يملكون !

وحينئذ يخلو الاستعمار الى الاستغلال ، ويخلو الاستغلال الى الاستعمار ، وتتلاقى مصلحتهما المشتركة في دفع هذا الخطر،

ورد هذا الاذى ، والوقوف في وجهه الطوفان ، الذي لو اندفع
لاغرق هؤلاء وهؤلاء !

وحينئذ يستهين هؤلاء وهؤلاء حتى بخطر الشيوعية ، الذي
لا يقاومه شيء كما تقاومه العدالة الاسلامية . لان الشيوعية خارج
الابواب ، تمكن مدافعتها بالقسوة وبالمفسالطة . والاسلام داخل
الابواب ، ومعه حجته التي تصيب فيها المغالطة والالتواء !

ان الاسلام الذي يشير في نفس الفرد العزة والكرامة ، ويمنحه
الخنسوع لحكم يخالف شريعته ، ويمنحه الامتداد والاستعلاء امام
كل سلطة وكل جيروت . . هذا الاسلام لا يوافق السلطات
الاستبدادية في الحكم ، ولا يضمن معه المستبدون البقاء .

وان الاسلام الذي يضع في يد الدولة تلك السلطات الواسعة،
لتحدد الملكيات والثروات ، ولتأخذ منها ما يلزم لاصلاح المجتمع
وتدع ما لا يضر ، ولتتحكم في ايجارات العقار ، وفي نسب الاجور ،
ولتؤم المرافق العامة ، وتمنع الاحتكار ، ولتحرم الربا والربح
الفاحش والاستغلال . . هذا الاسلام لا يوافق الطبقات المستغلة،
ولا يضمن معه المستغلون البقاء .

وعندئذ لا يسلط المستبدون والمستغلون على دعوة الاسلام
الحديد والنار فحسب ، بل يسلطون عليها رجال الدين المحترفين،
والكتاب المجورين ، والصحافة الهائلة ، تتخذ منها قرصا للتهكم،
وموضوما للسخرية ، ويجد فيها التافهون من فتيان الصحافة في
مصر مادة للتسلية تتفق مع ثقافة تفكيرهم ، وضحالة ثقافتهم ،
وضالة شأنهم في اية حياة اخرى جادة كريمة ، كالحياة الدافقة في
ظل الاسلام .

والعجيب ان جماعة من المفكرين الجادين ، ينساقون كذلك
مع التيار ، ويؤمنون بذلك الابحاء الذي تسلطه الرأسمالية على
دعوة الاسلام ، فيتصورون ان الحكم الاسلامي سينالهم بالاذى ،

ويشفقون منه على حرية الفكر ، كما تخوفهم ابواق المستغلين
والطغاة !

ان حكم الاسلام لن يمس تفكيراً مستقيماً بسوء ، ولن يمس
وضعا مستقيماً باذى . ولكنه حرب على الاوضاع الظالمة ،
والسلطات الفاشية ، ومادة قاتلة للتفكير الاعوج والهدر السخيف ،
لا بقوة الحديد والنار على طريقة حكم الاستبداد ، ولكن بالجدل
الحسن ، وبدفعة الحياة الجادة التي لا تسمح بالهدر الفارغ ، ولا
تجد المتبطلين الذين يستمعون الى هذا الهدر في جد الحياة .

عداوات المحترفين من رجال الدين

لعل اغرب العداوات لحكم الاسلام هي عداوة المحترفين من
رجال الدين ، المحترفين على اختلاف ملتهم ونحلهم وفرقهم
وطرائقهم . ولكنها في الواقع ليست غريبة الا في ظاهر الاشياء .
ان هؤلاء جميعا انما يعرفون ان ليس في الاسلام « رجال دين »
يرتزقون باسم الدين وحده ولا يؤدون عملاً آخر منه يأكلون .

ان الدين ليس حرفة في الاسلام ، الا ان يكون اشتغالا بتعليم
الناس ، شانه شأن اية مادة من مواد المعرفة الانسانية الاخرى .
او قضاء في احوالهم المختلفة ، شانه شأن اي تخصص في عمل من
الاعمال .

وان هؤلاء جميعا يعرفون ان الاسلام يطارد الدجالين ، الذين
يجمعون حوله الترهات والخرافات ، فالاسلام عقيدة بسيطة
واضحة ، لا تعتمد على المعجزات والكرامات والشفاعات والدعوات .
انما تعتمد على العقيدة المستقيمة ، والسلوك النظيف ، والعمل
الصالح ، والجد والانتاج

ولو حكم الاسلام فسيكون اول عمل له ان يطارد المتبطلين
الذين لا يعملون شيئاً ويعيشون باسم الدين ، والدجالين الذين

يلبسون وضوح الاسلام بغموض الاساطير ، ويستغفلون باسمه
عقول الجماهير ، والدراويش الدين لا يعرف لهم الاسلام مكانا في
ساحته ، ولا عملا في دولته . وهم في مصر كثير جدا كثير .

والحترفون من رجال الدين يعرفون ان لهم وظيفة اساسية
في المجتمعات الاقطاعية والراسمالية ، وظيفة ترزقهم الدولة عليها ،
وتيسر لهم مزاولتها والكسب منها في المجتمع . . تلك هي وظيفة
التخدير والتفريغ بالجماهير الكادحة العاملة المستغلة المحرومة ،
فاما حين يحكم الاسلام ، فيمطي هذه الجماهير حقها ، ويكف
المستغلين والمستبدين عنها ، ويحدد الثراء الفاحش الذي يؤدي
بمجرد وجوده نفوس المحرومين المنوعين . . حين يتم هذا فاما
وظيفة هؤلاء الحترفين في المجتمع ؟ وما مكانهم في الدولة ؟ وما
عملهم مع الجماهير ؟

ان حرفة الدين جزء من النظم الاجتماعية المختلة ، وقطعة
اصيلة من اجهزة الحكم فيها ، فاذا صحت تلك الاوضاع ، وسلمت
تلك الاجهزة ، فحرفة الدين تصبح بلا طلب ولا ضرورة ، لان الدين
ذاته سيستحيل عملا وسلوكا ، ونظما ومجتمعا ، ولا يظل اقوالا
وشعائر ، وامتعة وتراويل .

وتلك حقيقة واضحة لا يدركها اولئك الحترفون بافكارهم
وعقولهم ، فهم يدركونها بحسهم وفطرتهم . وما ينبغي ان نشك في
ذكاء هذا الفريق من الناس ، فان في الكثيرين منهم طاقة كبيرة من
الذكاء والمهارة والبراعة ، يستغلونها استغلال الحواة ، ويستخدمنها
استخدام السحرة ، ولو عاشوا في ظل نظام صالح يستغل هذه
الطاقة استغلالا سليما ، فربما كسب المجتمع منها كسبا عظيما .
فاما الان فهم مجرد تروس في جهاز الاستغلال . وهم مستغفون
مستغلون بدورهم ، وهم يدركون اخطار الحكم الاسلامي ، واقل
هذه الاخطار الاستغناء عن خدمتهم السلبية التي لا يعرفها
الاسلام !

معاوات المستهترين والمنطيين

لقد انتهينا في مصر الى مجتمع منحل مستهتر مريض، بفعل جميع العوامل السيئة الناشئة من الاختلال الاجتماعي الذي وصفنا أعراضه فيما سبق ، والناشئة كذلك من التيار العالي المنحدر بين الحريين الماليين الكبيرتين ، والحروب بطبيعتها تخلخل بنسب المجتمع ، وتجرف معها الاستهتار والانحلال الى الاقل بحكم التعرض للخطر والموت ، الذي يجعل انتهاب اللدائد المتاحة امرا تدفع اليه دوافع الفطرة والضرورة .

وايا ما كانت الاسباب ، فقد انتهينا الى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ، ويطفو على سطحه الاستهتار ، ويبدو الانحلال في كل جوانبه . سواء ما يتعلق بالجنس ، وما يتعلق بالمخدرات ، وما يتعلق بالدمية والضمير والخلق في العمل والسلوك . هذه الجموع المستهترة المنحلة من الرجال والنساء يهولها - من غير شك - ان تسمع شيئا من حدود الاسلام ، التي تفرع الفاحشين والفاحشات، بل من اوامره ونواهيها التي تكبح النفوس، وتزجر الجناة ، وتمنعهم بحكم العرف وحكم القانون من التبجح والاستهتار .

وتدخل الاوكار النسوية المتناثرة هنا وهناك في هذا المجال، تلك الاوكار التي تشتغل بتفاهاتها الفارغات من النسوة والفتيات، على سنة الفراغ والتبطل الموحى بكل تافه من الافكار والاممال .

ولقد اسلفت ان لا خوف من الاسلام على امرأة فاضلة، تراول نشاطها الانساني في حدود الشرف والكرامة . ولكن هذه الاوكار التي امنيتها تعرف ان هذا الشرط لا ينطبق على نشاطها ، وان الحرية الواسعة الكريمة التي يمنحها الاسلام للمرأة ، لا تسع ذلك اللون من النشاط !

هذه الجموع من الرجال والنساء ، ومن الشبان والفتيات ، هذه الجموع التي لا تجد في الحرية الواسعة الكريمة التي يتيحها

الاسلام للشرفاء والشريفات ، كفاية لنشاطها . . تفزع من حكم
الاسلام ، بحاسة الخوف على الذات ، وحب السلامة ، والامن
الذي يبره لها الاوضاع الاجتماعية القائمة ، بما فيها من انحلال
واختلال . فهي ان بطبيعتها عدوة لحكم الاسلام الذي ليس فيه
لها امان !

وتملك هذه الجموع نوادي وصحفا ، كما تملك نفوذا في جهاز
الحكم ومرافق المجتمع ، بل ان نفوذها ليعتد كل نفوذ آخر في هذه
البلاد ! انه النفوذ الذي يرتكن الى شهوات الجسم ونزوات الجسد
والى المال ، والى الحكم ، ويستخدم كل هذه القوى في مقاومة كل
نظام يمكن ان يحدث من هذه الفوضى ، وذلك الفساد .

وما زلت اذكر منذ سنوات كلمة احد الوزراء في ذلك العهد ،
في رواق من اروقة مجلس النواب ، وقد خرج في اثناء مناقشة
حادة حول « الغاء بيوت الدمار العلية ومكافحة بيوتها السرية »
. . قال : لا بارك الله له في بدن ولا مائة ! - « ونحن اذن اين
نذهب ؟ » واتبعها بجملة فليظة تابعه فيها الديول والاذناب !

مثل هذا الوزير كثيرون في مصر . . . وكثيرات ! يسمون هذه
الفوضى الحيوانية السائدة في مصر حرية ، ويسميها بعضهم تقدما
وحضارة ، ويساهي بالحديث فيها بشعور الحيوان المنطلق
الشهوات . وبعضهم يسميها طلاقة فنية ، لان الفن في نظرهم لا
يكون الا اباحية قلرة مريضة ، وكان الفن لا يمر روح « انسان » !

وما اريد ان اخط هنا خطبة منبرية في الوعظ الشريف ، كالتي
صاغتها اقلام السادة الاجلاء من كبار العلماء ! ولكني اريد ان ادل
على ان اختلال المجتمع المصري قد آتى كل ثماره الخبيثة العفنة
الكريهة ، وان الحكم الاسلامي سيتولى علاج هذه الثمار باجتثاث
الاصل الذي يطلعها ، بل بتطهير الثربة التي تنبت فيها .

والذي اريد التنبيه اليه هنا ان نصيبا عظيما من الضجة
القائمة ضد حكم الاسلام ، انما ينبعث من المواقف والاوكار والجيف
الطافية على وجه ذلك المستنقع الاسن الفسيح . المستنقع الذي

لا يخوض فيه اللصوص والسكران والنخاسون والرقيق الأبيض
فحسب، بل تخوض فيه رؤوس كبيرة كثيرة في هذا البلد، وبيوتات
فوق مستوى الشبهات !

فالذا سمع الناس هذه الضجة ضد حكم الإسلام ، وادّوا
احتفالا بمثيريها الأقزام ، فليعرفوا ان الزفة ليست للقرم الذي
يلبس الريش ، ولكن للمستنقع الذي تخشى ديدانه من المطهر
الفتاك !

عداوات الشيوعية والشيوعيين

الشيوعية دعوة قاست من رجال الدين الأمرين ، وهي تكافح
لتحطيم حكم القياصرة ، وإعطاء الجماهير ضروريات حياتها التي
كانت محرومة منها .

وهي نظرية فلسفية تنكر ان يكون في هذه الحياة مؤثر في
سيرها ، خارج من مادتها ، فهي تنكر منذ اللحظة الاولى ان يكون
هناك اله ، ليس كمثله شيء في هذه الحياة .

وهي تقرر ان المؤثرات في سير التاريخ كلها ناشئة من الماديات
الواقعية . فهي تنكر منذ اللحظة الاولى ان يكون هناك رسل
يوحي اليهم .

وهي تمنتق مذهب التفسير المادي للتاريخ . فهي تنكر منذ
اللحظة الاولى ان يكون للأفراد - رسلا او ابطالا - ادوار انشائية
في تطور المجتمع .

وهي - على ما فيها في الجانب الاقتصادي من موافقات كثيرة
لبعض النظم الاسلامية - تناقض فكرة الاسلام الاساسية من
الكون والحياة والانسان ، ومعاديه عداء شديدا بسبب هذا
الاختلاف الاساسي في طبيعة التفكير .

والشيوعية تعد نفسها في مرحلة حرب وكفاح ، فكل مقيدة

فيها جانب للروح ، وفيها حساب لله ، تمدها الشيوعية مدوة . لها ، ولو كانت هنالك مشابه كثيرة في الجانب الاقتصادي بينهما . بل ان الشيوعية لتعادي الاسلام اكثر مما تعادي المسيحية ، لان المسيحية لم تعد قوة ايجابية في طريقها ، ولان الاسلام يملك ان يحقق عدالة اجتماعية اقتصادية - بجانب احتفاظه بالله في العقيدة واحتفاظه بالروح في الحياة - ومثل هذا خطر كل الخطورة على الدعوة الشيوعية التي تعتمد اول ما تعتمد على سوء الاحوال الاجتماعية ، ويأس الجماهير من ان تجد لها طريقا الى العدالة غير الشيوعية .

وقد احست الشيوعية هذا في السنوات الاخيرة ، فاخذت تجند لمحاربة الدعوة الى الحكم الاسلامي جهودها ، وتبث ضد هذه الفكرة دعايتها . وهذه الدعاية تأخذ طريقها في شعبتين :
الشعبة الاولى : هي تشويه صورة الحكم الاسلامي ، مستغلة تلك الصورة المزورة للحكومة الاسلامية في بعض الشعوب الشرقية ، وبيان عدم جدية هذا الحكم ، وضموض الاسس التي يرتكز اليها ، وصلاحيه هذا الضموض للتأويل والاستغلال ضد الجماهير ، وضد الحرية والمفكرين الاحرار .

والشعبة الثانية : هي الالاحاح في القول بان العالم ينقسم فقط الى كتلتين اثنتين : الشرقية والغربية . وان عدم الانضمام الى الجبهة الشرقية ، معناه تقوية الجبهة الغربية . وكذلك اي تفكير في ايجاد كتلة ثالثة ، معناه تجزئة القوى مما يقوي جبهة الرأسمالية .

ولقد كشفنا ما في هذا القول وذاك من مغالطة ، وما يخفي وراءه من اغراض . والمهم ان يفتن الناس حين يسمعون الدعوة ضد الحكم الاسلامي الى بواعثها الحقيقية .

ان الشيوعيين يتعصبون لمذهبهم تعصبا يجعله في نظرهم غاية في ذاته ، لا وسيلة لتحقيق عدالة اجتماعية ، لذلك يهمهم ان

يسدوا في وجوه الجماهير أي طريق آخر يمكن أن يحقق لها عدالة حقيقية ، كي لا يبقى هناك الا طريق واحد : طريق الشيوعية .

ولا يجوز أن نفعل كذلك أن ليس التعصب المذهبي وحده هو الذي يملئ على دعاة الشيوعية خططهم ، بل أن الدولة الروسية لها من ذلك شيء ! فالشيوعية وسيلة إلى السيطرة على كل دولة تمتنقها ، وليس مجرد اعتناقها كافيا أن هي رفضت النفوذ الروسي . وهذه يوفوسلافيا شيوعية لا يظن أحد في شيوعيتها ، ولكنها رفعت رأسها أمام ذلك النفوذ ، فحلت عليها اللعنة ، ولم تشفع لها شيوعيتها !

وفي مصر تتدخل عوامل أخرى غير التعصب للشيوعية ، ويجب أن نحسب لهذه العوامل حسابها . . . أن في مصر شيوعيين لا لأنهم يحبون الشيوعية ، بل لأنهم يكرهون الاسلام ، فكل ما يحارب الاسلام إذن هو لهم صديق !

وهم يتظاهرون أمام المغفلين من المسلمين بأنهم مجردون من كل تعصب ديني ، لا يحفلون كل الأديان : وهم في حقيقتهم صليبيون ، ينصبون للاسلام وحده « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنما معكم ، إنما نحن مستهزئون » !

وما أحب أن أفيض في هذا الموضوع ، ولكن أحب أن أنبه كل مسلم من الأبرياء الذين تخدمهم هذه المؤامرة إلى أن يتأكد من الباطل الأول على الطعن في الاسلام وحكم الاسلام . فقد لا تكون الشيوعية إلا ستارا لذلك الطعن الخبيث . وأحب لكل فتى من فتيان المسلمين أنزلت خطاه إلى خلية شيوعية ، أن يتلفت ، فإن وجد فيها معه أحدا من هؤلاء الصليبيين المستترين ، فليأخذ حذره أنها عمل لحساب الصليبية ، لا لحساب الشيوعية ، ولا العدالة الاجتماعية .

ووددت أن أنتهي إلى هذا الحد في الفصل ، أولا دعاية تنبض في خاطري حول بعض شيوعيينا المصريين الأمراء ، الذين يتحدثون

أحيانا ضد حكومة الاسلام !

معظم هؤلاء الاعزاء ، يتناولون الحديث في هذه الشؤون ، وهم « منسجمون » في خدر الحشيش اللذيذ ، وامامهم جمرات من الفحم وحولها دخان النرجيلة المتلوي !

هؤلاء الرفاق المريحون ، لا يريدون مواجهة الواقع السيء في دنيا الناس - ونحن نشفق عليهم فهم ضحايا بريئة لذلك الواقع الاليم - وهم يهربون منه في خدر الحشيش اللذيذ ، يحلمون الاحلام المريحة عن « بابا ستالين » وهو يدمس لهم في « شجرة الهدايا » عدالة اجتماعية لذيذة ، لا يتمتعون حتى في تناولها .

فما لهم الذن ولهذا الاسلام المثعب ، الذي يكلفهم جهدا ومشقة ، بل ويفرض عليهم الصحو والعمل . . دعنا يا هم دعنا من هذا الاسلام ، ومن متاعبه الجسام . وغدا نصحو من المنام ، على وقع خطوات « ستالين الهمام » .

والآن أينما الجماهير.....

الآن ينبغي أن تتولى الجماهير الكادحة المحرومة المعبودة قضيتها بأيديها . ينبغي أن تفكر في وسائل الخلاص .. وتختار .
ان احدا لن يقدم لهذه الجماهير عوناً الا انفسها ، فعليها ان تمنى هي بامرها ، ولا تتطلع الى معونة اخرى .

انه لا الاحزاب التي تتولى الحكم جماعة او فرادى ، ولا الصحافة الحزبية او غير الحزبية ، ولا هيئة الاسم ، او احدى دولها الرأسمالية ، ولا الشيوعية كذلك في النهاية .. انه لا احد من هؤلاء جميعا سيمد يده الى الجماهير الكادحة في مصر ، الا ان تمد تلك الجماهير يدها الى قضيتها .

ونظرة الى ظروف هذه المؤسسات وحقيقتها تكفي لاقتناع من يريد الاقتناع ، ان الاعتماد على اي منها في نصره قضية الجماهير ، ان هو الا مجرد تواكل وغفلة وتقصير .



هذه التشكيلات الحزبية . من تمثل ؟ انها لا تمثل الجماهير قطعا لا بمقليتها ولا بمصلحتها ولا بظروفها . من هم الذين يشترط القانون ان يكونوا شيوخا في البرلمان ؟ انهم الذين يملكون نصابا معيناً من المال !

اخي تلك الملايين من الجماهير الكادحة واحد فقط تنطبق عليه هذه الشروط !!

ومن هم الذين تسمح لهم الظروف ان يكونوا نوابا في البرلمان؟

انهم الذين يملكون اولاً ان يدفعوا التأمين وهو مائة جنيه وخمسون، ثم يملكون ثانياً ان ينفقوا آلاف الجنيهات على المعركة الانتخابية ، وسماستها وحفلاتها وتنقلاتها وولائمها وذيولها ، ثم يملكون ثالثاً ان يتصلوا بحزب يرشحهم ويسندهم ويتقاضى منهم جزاء الترشيح ضريبة خزانته التي تتراوح بين المئات والالوف . . افبين الجماهير الكادحة من تنطبق عليه هذه الشروط !!

كلا ! وليس وراء الجماهير الفقيرة المستغلة تنظيمات وتشكيلات قوية من النقابات والاتحادات ، تتولى ادارة المعركة الانتخابية بأموالها وينفذها ، كي تقدم الى البرلمان مرشحين منها، يعبرون عن آلامها وآمالها .

واذن فستبقى الجماهير الكادحة المحرومة المقبولة في جانب ، وتبقى لتشكيلات الحزبية والبرلمانية في جانب ، ويبقى الصراع بين المصالح المتعارضة قائماً . الى ان تتولى الجماهير امر نفسها ، فتنشئ من التشكيلات ما يملك الانتصار في معركة الانتخابات وغير الانتخابات . والى ان يتم هذا فلا ينبغي ان تعلق الجماهير املاً على الصراع الحزبي القائم ، ولا ان تتطلع الى حزب دون حزب ، ولا ان ترجو النصفة على وثبة حزب من هذه الاحزاب على كرسي الحكم ، بانتخاب او بغير انتخاب .

هذه الحقيقة تؤيدها كل تجارب الماضي الحزبي والبرلماني في مصر منذ ربع قرن مضى . ان هذا الصراع الحزبي لم يكن مرة واحدة على مصلحة الجماهير ، وانما كان دائماً على كرسي الحكم ، وما وراءها من مفانم ، ومن ارضاء وافناء المحاسيب والهتاف والاقارب والاصهار !

فاما حين يلوح في الافق شبح الخطر على مصلحة صغيرة من مصالح الرأسمالية ، فينسى المتصارعون احقادهم ، ويشرك المتخاصمون خصوماتهم ، ويقف الجميع صفاً واحداً في وجه ذلك الخطر الصغير ، الوفدي والسعدي والدستوري سواء ، يدافعون

من مصالح الرأسمالية المهددة ، ضد مصلحة الجماهير المحرومة .

وما على من يتشكك في هذه الحقيقة البارزة الا ان يعود الى مضابط البرلمان ، عند نظر مشروع الضريبة التصاعدية ، او مشروع الارباح الاستثنائية ، او مشروع ضريبة التركات ، او مشروع نقابات العمال ، وبخاصة مسألة حرمان خدم البيوت من حق تكوين النقابات . . او كل مشروع يحمل رؤوس الاموال شيئا من التكاليف التي تحملها رؤوس الاموال في كل جوانب الارض ، الا في ارض الاقطاع .

انه سيجد المعارضين يمثلون اشخاصهم ومصالح طبقتهم ولا يمثلون احزابهم وهيئاتهم . ذلك انهم جميعا رأسماليون قبل ان يكونوا فديين او سمديين او دستوريين !

وها نحن اولاء امام مثل قريب ، يدركه كل فرد في هذه الامة ، لانه يتجرمه ويكتوي بناره : ها نحن اولاء امام الغلاء الفاحش ، الذي يفقر فاه كالقول ليلتهم الاخضر واليابس ، ويمتص دماء الملايين في نهم يشع لتنتفخ بها الوداج ، وتتخم بها الكروش . . فماذا صنعت الدولة وماذا صنع البرلمان لمكافحة ذلك القول الجبار ؟

بيانات واحاديث ، ثم بيانات واحاديث ، ثم حملات تفتيشية على الاسواق . الاسواق هنا في القاهرة حيث الحققة الاخيرة وحدها من سلسلة الغلاء الطويلة .

ان الغلاء لا ينبع هنا بل يصب . والقائمون بالامر يعرفون ، ولكنهم لا يجرؤون على ان يمسوا ذلك المنبع بسوء ، لانهم هم ممثلوه والمنتفعون به ، والمشترون فيه !

ان اقواتنا واشيائنا تأتي لنا من مصدرين : مصدر داخلي مما نزرعه ونربيه ونصنعه في الداخل ، ومصدر خارجي مما نستورده من مأكولات ومصنوعات وادوات وخامات .

والدولة تعلم ان المالك يؤجر الفدان الواحد بخمسين وسنتين

جنيها الى ثمانين . فماذا تنتظر الا ان تكون اسعار الحاصلات الناشئة من هذا الغدان عالية ، واسعار الماشية التي ترمى هذا الغدان عالية ، واسعار منتجات البانها كلها عالية ... وما الذي يجدي ان تحارب الغلاء هنا في القاهرة ، وتدعمه في منبعه يتزايد ويتصاعد في سعار ؟

ان الحل ميسور : ان تتحكم الدولة في التصدير والاستيراد ، وان تشتري لحسابها كل المحصولات التي تصدر الى الخارج وفي اولها القطن بسعر يجزي الزراع ، ثم تبيعها هي لحسابها بالاسعار العالية ، فاما الحصيدلة الناشئة من الفرق ، فتساهم بها في تخفيض سعر الواردات حين تباع للمستهلك ، وتدعم بها الفرق بين ثمن شرائها المرتفع و ثمن بيعها المناسب للجماهير .

وبعد ذلك لا قبله تجدي التسمية ، وتجدي حملات التفتيش ، ولكن من الذي يفعل ذلك . اهي حكومة الرأسمالية وبرلمان الرأسمالية ؟ ولحساب من ؟ لحساب الجماهير ، ومصلحة الجماهير ؟!

والمشروعات المعطلة التي لا تنتهي ابدا ، بينما الثروة القومية تنهار ، ومستوى الدخل الفردي ينحط ، والمتعطلون يملأون جنبات الوادي . لم لا تنفذ ؟ لان تنفيذها يقتضي مالا ، والمال في جيوب الاثرياء . والاثرياء في الوزارة وفي البرلمان !!

هذا والجماهير تتصايح : يسقط ويحيا . والحواة يلهونها بالجلاد والوحدة . والاستعمار لا يحفل هذا الصياح ، لانه يعلم جيدا ان هذه بضاعة معدة للتصدير الى الداخل ، وان مصالحه الاساسية مصنونة ، لا بجيوش الاحتلال ، ولكن بالمخالفة الطبيعية التي بينه وبين رؤوس الاموال ! فما عليه ان تهتف الجماهير حتى تتمزق حناجرها ، وهذه الجماهير لا تملك من الامر شيئا ، والذين يملكون الامر كله يحرسون على بقائه سنداً لهم ضد الجماهير ، التي ستفرغ الى تحقيق العدالة الاجتماعية في اللحظة التي تفرغ

فيها من تسوية القضية المصرية .

ان الثغلة والبله هما اللذان يصوران للجماهير في مصر ان حربا ما في هذا البلد يرغب رغبة حقيقة في الجلاء والوحدة ، وفي حل القضية المصرية على اساس يبعد نفوذ الاستعمار ، وقوة الاستعمار . وان هذه الاحزاب جميعا لتعلم ان تلك القضية هي « مدة الشغل » التي تلعب عليها ، فضلا على ان الاستعمار هو خط الدفاع الاخير لحماية المصالح الحقيقية التي تمثلها !

كل ما هناك من فروق ، هو فروق الاساليب التي تتخاطب بها الجماهير ... فرجل كصديقي لم يكن يخفي حرسه على ربط مصر بمجلة الامبراطورية من طريق الدفاع المشترك . لان الرجل كان يعرف خلفاءه الطبيعيين ، وحلفاء اتحاد الصناعات الذي كان على رأسه ... فاما الآخرون فقد يهتفون مع الجماهير : يسقط الاستعمار .. كي تذهب الجماهير فتستنيم ، أو لتشق حناجرها بالهتاف للمجاهدين ! وذلك اعتمادا على غفلة الجماهير الساذجة ، وانها لا تدرك المحالفة الطبيعية بين مصالح الاستعمار الحقيقية في هذه البلاد ، والمصالح الحقيقية التي تمثلها كل الاحزاب !

فاما الصحافة فليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير ضد الطغاة والمستغلين ، ولا ضد الاستعمار ووراءه الرأسمالية العالمية القوية .

ان الصحيفة مؤسسة تجارية قبل كل شيء ، وعليها ان توازن ميزانيتها على الاقل لتعيش ، وقد أصبحت المنافسة الصحفية عنيفة في دائرة القراء المحدودين ، وهذه المنافسة تقتضي تحسينات صحفية ، وتكاليف متصاعدة ، وموارد مالية كبيرة .

والرواج في التوزيع لا يقلل من نفقات الجريدة ، بل يزيد خسائرها اذا وقفت عند حدود البيع . ذلك ان تكاليف النسخة الواحدة من اية جريدة كبيرة ، يومية او اسبوعية ، اكثر من السعر الذي تباع به هذه النسخة في السوق . وهذه حقيقة قوية يجب

ان تكون في الحساب ، ليعرف الجمهور الفقير الكادح انه ليس هو الذي يمول الجريدة الرائجة بقروشه وملايمه ! انما تعتمد هذه الصحف في وجودها وبقائها وربحها على موارد اخرى غير القروش والملايم . تعتمد اولا على الاعلانات . وهذه الاعلانات تملكها شركات رأسمالية ضخمة ، تخدم بدورها المؤسسات الرأسمالية التي تتولى الاعلان عنها . . . وتعتمد ثانيا على المصروفات السرية المؤقتة او الدائمة : المؤقتة التي تدفعها الوزارات لصحافتها الحزبية ، او للصحف التي تريد شراءها ، او ضمان حياتها ، (وهي في العادة دفعات ضخمة) . والدائمة التي تتولى ادارة المطبوعات صرفها اما لصحف واما الصحفيين بصفة دائمة على اختلاف العهود ، لخدمة الاغراض الحكومية الدائمة التي لا تتعلق بحزب دون حزب . . . وتعتمد ثالثا على المصروفات السرية لاقلام المخابرات الدولية ، وبخاصة انجلترا وامريكا . . . ذلك عدا نفقات الدعاية المباشرة للشركات والبيوتات ولبعض الجهات .

هذه الموارد هي التي تعوض الفرق بين تكاليف النسخة وسعرها الذي تباع به في السوق . ثم تشتري المطابع الضخمة ، وتبني الدور الضخمة ، وتوفر وسائل الدعاية والاعلان للصحيفة . فلما الرواج وحده بارتفاع مقطوعية البيع ، فقد كان من شأنه ان يضاعف خسائر هذه الصحف لا ان يكون سببا للربح ، فكلما زاد عدد النسخ زادت الخسارة !

ان فائدة الرواج في مقطوعية البيع فائدة غير مباشرة ، ذلك انها ترفع سعر الاعلان في الصحيفة ، وترفع سعرها في دائرة المصروفات السرية ، داخلية كانت او خارجية ، وهذه هي كل قيمة الرواج بالنسبة الى اية صحيفة .

فاذا عرفنا هذه الحقيقة ادركنا ان الصحافة ليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير . انما هي تعطي الجماهير بقدر القروش والملايم التي تدفعها ثمننا للنسخ الموزعة ، وتعطي

الممولين الحقيقيين : سواء كانوا أصحاب المؤسسات الرأسمالية ،
او الجهات الحكومية ، او اقلام المخابرات الدولية بقدر جنياتها
ودولاراتها ، وتقسم جهودها بين الفريقين قسمة بارعة تناسب
قفلة الجماهير وسداجتها ، وذكاء الجبهة الاخرى وخبرتها !

فاما صحافة الراي التي تعمل للجماهير الكادحة وحدها ،
فهي مطاردة من الدولة ، ومن الرأسمالية المحلية والعالمية ، ومن
قوى الاستعمار جميعا . . . ثم هي مطاردة من الجماهير الساذجة
ذاتها ، لان مواردها لا تسمح لها بالمظاهر الصحفية الخلاقة ، ولان
ضمايرها لا تسمح لها بصور الافخاذ والنهود ، وبتلوية الجماهير
وتخديرها بالدردشة المسلية اللذيذة ! ومنذئذ تعرض عنها الجماهير
نفسها ، ولا تقف بجانبها بقروشها وملايمها ، على حين تستند
الصحافة الاخرى الى الجنيئات والدولارات المتدفقة من الجبهة
الاخرى .

ان صور الافخاذ والنهود هي التسلية التي تقدمها صحافة
الرأسماليين للجماهير المحرومة ، كي تلهيها عن استمتاع الرأسماليين
الفاجر بتلك الافخاذ والنهود الحقيقية لا بصورها . . . والدردشة
الفارغة التي تملأ صفحات وصفحات ، هي المخدر الذي تسرق به
هذه الصحف جهد القارئ واهتمامه ، لتشفله عما هو فيه من
بؤس وحرمان . وما يمكن ان يخدم الرأسمالية احد ، كما يخدمها
بهائين الوسيلتين الخبيثتين ، اللتين تقبل عليهما الجماهير البلاء
اقبالها على الحشيش والافيون !

واليوم تبشر الرأسمالية الجماهير المحرومة ببشارة جديدة . .
تبشرها بجهود هيئة الامم في محاربة الفقر ، وبحلقات الدراسات
الاجتماعية التي تشرف عليها لدراسة مشكلات الجماهير ، وبالنقطة
الرابعة في برنامج ترومان .

فماذا بالله يريد الجاحدون في هذا البلد العاق ، السذي لا يعرف الفضل ، ولا يشكر الجميل ؟

فاما الرأسمالية في هذا البلد فهي حريصة على الاستفادة من جهود هيئة الامم هذه ، وهي حفية بطلقات الدراسة الاجتماعية التي تعقدتها ، وتنشر في الصحف أخبارها ، وتشغل بها الناس اياما واسابيع . ليست وسيلة اساسية من وسائل تلهية الجماهير وتخديرها وانامتها الى حين !!

وصحافتها لا تني تنشر بالخط المريض تلك الانباء الناطقة بعطف المنظمات الدولية واهتمامها البالغ بقضية العدالة الاجتماعية في مصر .

الليست وسيلة بارعة من وسائل استمالة الجماهير الى الاستعمار ، لتلقي عليه اعباءها الثقيل ، وتكل اليه تحقيق العدالة الاجتماعية التي تتلف عليها ولا تراها !!

ولكن الجماهير ينبغي ان تعلم ان المصلحة المشتركة بين الرأسمالية العالمية تعقد بين ممثليها جميعا في الشرق والغرب حلفا طبيعيا ، ضد الجماهير ومصالح الجماهير . وان المصالح المشتركة بين الاستعمار والرأسمالية المحلية تعقد بينهما كذلك مخالفة طبيعية قوية الاواصر .

ينبغي ان تدرك الجماهير ان الاستعمار لا يحب ان يواجهه الجماهير بوجهه الكالح ، فلا بد له من ستار ، يحكم بواسطته ، وينفذ اغراضه عن طريقه ، ويضمن مصالحه بواسطته . هذا الستار هو الطبقة الرأسمالية الحاكمة ، التي يكل اليها مقاليد الامور ويستريح ، ومحال ان يحاربها او ان تحاربه الى الحد الذي يقتل او يضعف ، ويمكن للجماهير .

ينبغي ان تعرف الجماهير ان الاستعمار منذ قدومه قد عمل على تكوين هذه الطبقة . وان الخونة الذين مهدوا له الطريق ، وخذلوا الجيش المصري او خانوه او غشوه ، قد اغدق عليهم

الاستعمار ومكن لهم في الارض ، وذرياتهم اليوم من اصحاب البيوتات في مصر ومن ذوي الضياع الواسعة ، ومن يسمون في هذا البلد المسكين : « اصحاب البيوت الكريمة العريقة ! »

واخيرا يجب ان تعرف الجماهير ان الاستعمار حريص على تجويع الجماهير . لانه يعرف - كما قال ممثله مرة « جورج لويد » في كتابه : ان الرخاء في سنة ١٩١٩ هو الذي شجع على قيام الثورة المصرية . لهذا يجب ان تجوع الجماهير في مصر ، كي لا تفيق من البحث عن اللقمة ، فتتجه للثورة على الاستعمار من جديد !

بقيت الشيوعية التي يحلم بها الكسالى في مصر على دخان الحشيش وخدره اللذيذ .

هم يقولون لك : لا فائدة ! فلنتظر الخلاص على يدي « بابا ستالين » !

ان الرأسمالية ستحارب كل دعوة الى العدالة الاجتماعية ، وتناهضها بالقوة وبالحيلة وبالمال ، وبشراء الدم واستغلال الجماهير .

كل هذا صحيح ! ولكن متى انتصرت قضية واحدة في تاريخ الدنيا بغير صراع قصير او طويل ؟

ان الشعوب التي لا تكافح من اجل الحرية لن تستحق الحرية . واذا نحن جلسنا مستريحين ، ندخن الحشيش ، او نحلم بالاماني ، فستأتي الشيوعية - لو جاءت - لتجدها ذبولا ذليلة ، تسومنا سوم المبيد .

ان الكرامة الانسانية وحدها توجب علينا ان نعمل شيئا

نستحق به الخلاص والحرية . والا فسنخرج من ذل الى ذل ،
يتغير عنوانه ، ويتبدل أسياده ، والعبيد هم العبيد !

والآن ايها الجماهير . . لقد تبين ان احدا لن يمد يده اليك
ما لم تمدي أنت يدك اليك ! وان الطرق جميعها لا تؤدي الى
الخلاص الحق ، اللهم الا طريقك الواحد الاصيل !

ايها الجماهير . . لقد تمين لك طريق الكرامة الانسانية ،
وطريق العدالة الاجتماعية ، وطريق المجد الذي عرفته الامة
الاسلامية مرة ، والذي تملك ان تعرفه مرة اخرى . . لو تفيق .

ايها الجماهير . . ها هوذا الاسلام حاضرا يلبي كل راجب في
الحرية والاستقلال والسيادة . وكل راجب في المساواة والحرية
والعدالة . وكل من يؤمن بنفسه وقومه ووطنه . وكل من يشعر
ان له مكانا كريما في ذلك الوجود .

ايها الجماهير . . هذا هو الطريق . . هذا هو الطريق . .

فهرس

صفحة

٥ صيحة النذير
٨ اني اتهم
٢٣ في مغارق الطريق
٣٦ في الاسلام خلاص
٢٨ سوء توزيع الملكيات والثروات
٤٥ مشكلة العمل والاجور
٤٧ عدم تكافؤ الفرص
٤٩ فساد العمل وضعف الانتاج
٥٣ مشكلات اخرى يحلها الاسلام
٥٥ لا بد للاسلام ان يحكم
٦٣ شبهات حول حكم الاسلام
٦٥ بدائية الحكم
٦٩ حكم المشايخ والدراويش
٧٥ طغيان الحكم
٨٤ غموض النصوص
٨٦ الحريم !!!
٨٨ التعصب ضد الاقليات
٩٣ عداوات حول حكم الاسلام
٩٣ عداوات الصليبيين
٩٨ " المستعمرين
١٠٣ " المستغلين والطفاة
١٠٥ " المحترفين من رجال الدين
١٠٧ " المستهترين والمنحطين
١٠٩ " الشيوعية والشيوعيين
١١٣ والان آيتها الجماهير

بصادر عن دار الشروق

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الأستاذ سيد قطب

- في ظلال القرآن
- مشاهد القيامة في القرآن
- التصوير الفني في القرآن
- الإسلام ومشكلات الحضارة
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- التقدير الأدبي أصوله ومناهجه
- مهمة الشاعر في الحياة
- هذا الدين
- السلام العالمي والإسلام
- معالم في الطريق
- دراسات إسلامية
- نحو مجتمع إسلامي
- في التاريخ فكرة ومنهاج
- تفسير آيات الرأ
- تفسير سورة الشورى
- كتب وشخصيات
- المستقبل لهذا الدين
- معركتنا مع اليهود
- معركة الإسلام والرأسمالية
- العدالة الاجتماعية في الإسلام

مكتبة الأستاذ محمد قطب

- الإنسان بين المادية والإسلام
- منهج الفن الإسلامي
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول)
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- معركة التفاليد
- في النفس والمجتمع
- التطور والثبات في حياة البشرية
- دراسات في النفس الإنسانية
- هل نحن مسلمون
- قبسات من الرسول
- شبهات حول الإسلام
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- مفاهيم ينبغي أن تصحيح
- مذاهب فكرية معاصرة
- كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- تحت الطبع
- المستشرقون والإسلام

من كتب دار الشروق الإسلامية

- مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء
- تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت
التناوي
الإمام الأكبر محمود شلتوت
من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت
إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت
الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت
المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي
أنبياء الله
الأستاذ أحمد بيجت
نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين
وبالية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي
الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم
- الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم
على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ إبراهيم بن علي الوائلي
الرسالة المخالفة
الأستاذ عبد الرحمن عزام
محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل
الإسلام في مفرق الطرق
الدكتور أحمد عروة
العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بيهي
موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بيهي
الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بيهي
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بيهي
القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بيهي
الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بيهي
الإبراء والمعراج
فضيلة الشيخ منولي الشعراوي

متاسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

أيها الولد المحب

الإمام النزالي

الأدب في الدين

الإمام النزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

القرآن والسلطان

الأستاذ فهمي هويدي

خطايا الإسماء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكبيك

الخطابة وإعداد الخطيب

الدكتور عبد الجليل شلي

تأريخ القرآن

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الإسلام والمبادئ المستوردة

الدكتور عبد المنعم النمر

سلسلة أعلام الإسلام ١٦/١

سلسلة أهل البيت ٦/١

إسهام علماء المسلمين في الرياضيات

تأليف للدكتور علي عبد الله الدفلاص

تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي

مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد

الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه

الإسلامي

الدكتورة سهير رشاد مهنا

الأديان القديمة في الشرق

دكتور رؤوف شلي

القضاء والقدر

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قصايا إسلامية

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

التصوير الفني في القرآن

الدكتور بكري الشيخ أمين

أدب الحديث النبوي

الدكتور بكري الشيخ أمين

الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

اليهود في القرآن

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

أيام الله

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

مسلمون وكلهم

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الدهرة الوهاية

الأستاذ عبد الكريم الخطيب

قال الأولون ... لأدب ودين

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قل يا رب

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

الجديد حول أسماء الله الحسنى

الأستاذ عبد المنعم سعيد

الجائز والمنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

رقم الايداع : ١٩٨٩/٨٧٠٥
التزقيم القسري : ٨-٨-٨-٣٥٦-١٤٨-٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس : ٣٩٣١٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

مكتبة
سيد قطب

في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومتهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحن مجتمع إسلامي